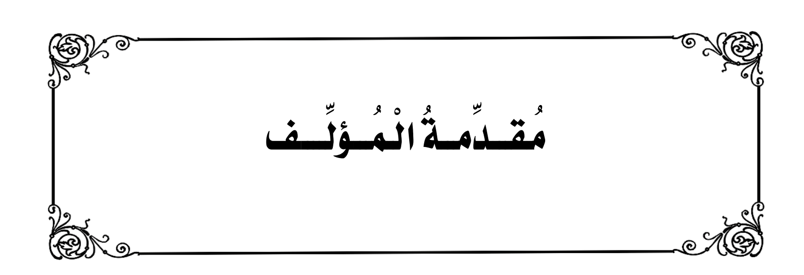
العلم و العمل

تأليف
فضيلة الشيخ الدكتور
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله تعالى

دار أضواء السلف
دار الفرقان



مُقدِّمةُ الْمُؤلِّف

إِنَّ الْـحَمدَ للَّـهِ، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّـهُ وحده لا شريكَ لَهُ، وأشهد أنَّ مُـحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الْـحَديثِ كتابُ اللَّـهِ، وخيرَ الْـهَدي هديُ مُـحمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُـحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُـحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

هذه رسالةٌ في «**العلم والعمل**»، وهُـمَـا معًا سرُّ فلاحِ الفردِ والأمةِ؛ لأنَّ كمالَ كلِّ إنسانٍ إنَّـمَـا يتمُّ بهذين النوعين: هِـمَّةٌ تُرقِّيه، وعلمٌ يُبَصِّره ويَهدِيهِ، فإنَّ مراتبَ السعادة والفلاح لا يُـحصِّلُها العبد إلَّا بهذين، وهُـمَـا: الإرادةُ والعلمُ؛ فالإرادةُ

بابُ الوصولِ إلىٰ الصِّراطِ المستقيمِ، والعلمُ مفتاحُ ذلك البابِ المتوقِّف فتحُهُ عليه.

والسائر إلىٰ اللَّهِ والدارِ الآخرةِ، بلْ كلُّ سائرٍ إلىٰ مقصدٍ لا يتمُّ سيرُهُ ولا يصلُ إلىٰ مقصدِهِ إلَّا بقوتين: قوةٍ علميَّةٍ، وقوةٍ عمليَّةٍ؛ فبالقوةِ العلميَّةِ يُبصرُ منازلَ الطريقِ ومواضِعَ السلوكِ فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنبُ أسبابَ الهلاكِ ومواضِعَ العَطَبِ، وبالقوةِ العمليَّة يسير حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقة القوةِ العمليَّةِ، فإنَّ السيرَ هو عملُ المسافرِ.

والْجَمعُ بين العلمِ والعملِ مِن أكبرِ أسبابِ ظهورِ الأمَّةِ، واستقرارِ أمرِهَا، ودليلُ ذلك أنَّ الصحابةَ ﭫ كانوا في الْمَجدِ سادةً، وإلىٰ رفيعِ الشأنِ قادةً، وقد حقَّقوا هذا الأصلَ تَحقِيقًا.

أخرج ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ١١٩) بإسنادٍ صحيحٍ عن أبي عبد الرَّحْمَن السُّلَمِيِّ قال: «**إنَّا أَخَذْنَا هَذَا القُرآنَ عَن قَومٍ أَخبرُونَا أَنَّهُم كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آياتٍ لَمْ يُجاوزوهُنَّ إلىٰ العَشْرِ الأُخَرِ حتَّىٰ يَعْلَمُوا مَا فِيهِنَّ ويَعْمَلُوا بِهنَّ، فَكُنَّا نَتَعَلَّمُ القُرْآنَ والعملَ بِهِ**».

وهذه الرِّسَالةُ تضمُّ -بحولِ اللَّهِ وقوتِهِ- أطرافًا مِمَّا يتعلَّقُ بهذا الأصلِ الكبيرِ، وهو العلمُ والعملُ، ففيها بيان خطورة الفصل بين العلمِ والعملِ، وبيانُ مَثَلِ عَالِمِ السُّوءِ، وبيانُ أنَّ الدليلَ بالفعلِ أرشدُ مِن الدليلِ بالقولِ، وأنَّ سلوكَ رجلٍ أجدىٰ لألفِ رجلٍ مِن كلامِ ألفِ رجلٍ لرجلٍ.

وفيها بيانُ مراتبِ العلمِ والعملِ، وأنَّ الاغترارَ بالعلمِ داعيةُ البطالةِ وتركِ العملِ، **وأنَّ الْخَلاصَ فِي الإخلاصِ، وإنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَن لَم يُخلِص**، إلىٰ غير ذلك مِمَّا

يَسَّرَ اللَّـهُ جَـمْعَهُ وتَـحْـرِيرهُ، وله سُبحانَهُ الْـمِـنَّـةُ وحدَهُ.

وإنِّـي لأَضْرَعُ إلىٰ الله تعالـىٰ متوسِّلًا إِلَيْهِ بأسمائِهِ الْـحُسنىٰ وصفاتِهِ الْـمُثلَـىٰ؛ أن يوفقنِي وإخوانِي مِن طلَّابِ العلمِ، وجميع المسلمين للتَّمسُّكِ بهذا الأصلِ العظيمِ، تَـمسُّكًا لا يدعُ للفصلِ بين العلمِ والعملِ مَـجَـالًا، ولا للهمَّةِ العاليةِ عن الإرادةِ زوالًا.

وأسألُهُ سبحانَهُ أنْ يَرزقَنَا الإخلَاصَ في القصدِ والنِّيَّـةِ، والإحسانَ في العلمِ والعملِ.

وصلَّىٰ الله علىٰ نبينا مُـحمَّدٍ وعلىٰ أبويه إبراهيم وإسماعيل وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وآخرُ دعْوَانَا أَنِ الْـحَمدُ للَّـه ربِّ العَالَـمِين.

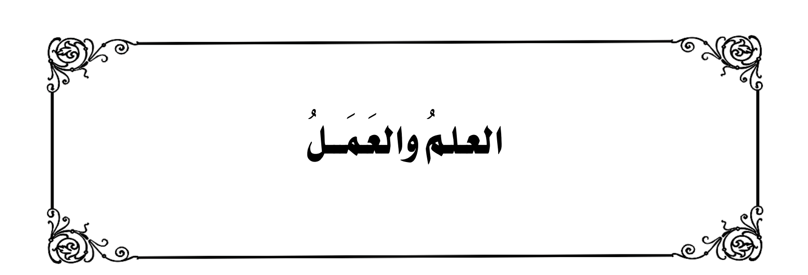
وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

سبك الأحد

الاثنين (٢٩/ ٤/ ١٤٢٩هـ - ٥/ ٥/ ٢٠٠٨م)



العلمُ والعَمَـلُ

ألا إنَّ ثمرةَ العلمِ العملُ، وكلُّ علمٍ لا يُثمرُ عملًا -في القلبِ أو الجوارحِ- فهو علمٌ يُلزِمُ صاحبَهُ الحُجَّةَ أمامَ الله ﷻ.

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٤٣): «قال أبو قِلابَةَ لأيوبَ: يا أيوبُ! إذا أحدثَ اللهُ لك علمًا فأحدث له عبادةً، ولا يكن همك أن تُحدِّثَ به الناسَ».

وإنَّما العالِـمُ مَن فَارَقَ الجُهَّالَ في العلمِ والعملِ جميعًا، فإن فارقهم في العلمِ وشاركهم في التخلُّفِ عن العمل؛ فقد شاركهم لون مشاركةٍ ظاهرةٍ، وفارقهم في حقيقةِ الأمرِ وجوهرِ الموضوعِ.

وما مَدَحَ الشارعُ العلمَ بما مدحه به إلا لكونِهِ طريقًا مستقيمًا يُفضي إلىٰ أودية من العملِ الدائبِ والجدِّ الحريصِ؛ لأنَّ العلمَ مَطيَّةُ السيرِ إلىٰ الله تعالىٰ، والسائرُ إلىٰ الله تعالىٰ لا يكفيه أن يَحُوزَ القوةَ العلميةَ جمعًا وتحصيلًا كي يفوزَ بالنجاةِ ويسعدَ بالفوزِ، بل ينبغي أن تتآزَرَ[1] لديه القوةُ العلميةُ والقوةُ العمليةُ حتىٰ يكونَ سيرُهُ إلىٰ الله تعالىٰ مُثمرًا، بل حتىٰ يكون إلىٰ الله تعالىٰ سَائِرًا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ **في «منهاج السنة»** (٥/ ٤٢٨-٤٣١): «الناسُ في طلبِ

(١) تتآزَرُ: تتعاون ويُقَوِّي بعضُها بعضًا.

العلمِ والدينِ طريقان مبتدعان، وطريقٌ شرعيٌّ: هو النظرُ فيما جاء به الرسولُ، والاستدلالُ بأدلَّتِهِ، والعملُ بموجبهَا، فلابُدَّ من علم بما جاء به وعملٍ به، لا يكفي أحدُهما.

وهذا الطريقُ متضمنٌ للأدلةِ العقليةِ والبراهينِ اليقينيةِ، فإنَّ الرسولَ بيَّن بالبراهينِ العقليةِ ما يتوقَّف السمعُ عليه، والرسلُ بيَّنوا للناسِ العقلياتِ التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كلِّ مَثَل.

وهذا هو الصراطُ المستقيمُ الذي أمر الله عبادَهُ أن يسألوه هدايتَه.

وَأَمَّا الطَرِيقَانِ الْـمُبتدَعَانِ: فأحدُهُمَا: طريقُ أهل الكلام البدعيِّ، فإن هذا فيه باطلٌ كثيرٌ، وكثيرٌ من أهلِهِ يفرطون فيما أمر اللهُ به ورسولُهُ من الأعمالِ، فيبقىٰ هؤلاء في فسادِ علمٍ وفسادِ عملٍ، وهؤلاء منحرفون إلىٰ اليهوديةِ الباطلةِ.

والثاني: طريقُ أهل الرياضةِ والتَّصوفِ والعبادةِ البدعيةِ، وهؤلاء منحرفون إلىٰ النَّصرانيةِ الباطلةِ، فإنَّ هؤلاء يقولون: إذا صفَّىٰ الإنسانُ نفسَهُ علىٰ الوجهِ الذي يذكرونه فاضت عليه العلومُ بلا تعلُّمٍ، وكثيرٌ من هؤلاء تكون عبادتُه مبتدعةً، بل مخالفةً لِـمَا جاء به الرسولُ ﷺ، فَيبقَوْن في فسادٍ من جهةِ العملِ، وفسادٍ من نقصِ العلمِ، حيث لـم يعرفوا ما جاء به الرسولُ، وكثيرًا ما يقع من هؤلاء وهؤلاء، وتقدح كلُّ طائفةٍ في الآخرىٰ، وينتحل كلٌّ منهم اتِّباعَ الرسولِ، والرسولُ ليس ما جاء به موافقًا لِـمَا قال هؤلاء ولا هؤلاء؛ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]، وما كان رسولُ الله ﷺ ولا أصحابُهُ علىٰ طريقةِ أهلِ البدعِ من أهلِ الكلامِ والرأي، ولا علىٰ طريقةِ أهلِ البدعِ من أهلِ

العبادةِ والتَّصوف، بل كان علىٰ ما بعثه اللهُ من الكتابِ والحكمةِ.

وكثيرٌ من أهلِ النظرِ يزعمون أنَّه بمجرَّدِ النظرِ يحصل العلمُ، بلا عبادةٍ ولا دينٍ ولا تزكيةٍ للنفسِ، وكثيرٌ من أهلِ الإرادةِ يزعمون أنَّ طريقَ الرياضةِ بمجرَّدِهِ تَحْصُلُ المعارفُ، بلا تعلُّمٍ ولا نظرٍ ولا تدبُّرٍ للقرآنِ والحديثِ، وَكِلَا الفريقين غالطٌ، بل لتزكيةِ النفسِ والعملِ بالعلمِ وتقوىٰ الله تأثيرٌ عظيمٌ في حصولِ العلمِ، لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظرٍ وتدبُّرٍ وفهمٍ لِـمَا بعث اللهُ به الرسولَ.

ولو تعبَّدَ الإنسانُ ما عسىٰ أن يتعبَّدَ لـم يعرف ما خصَّ اللهُ به محمدًا ﷺ إن لـم يعرف ذلك من جهته، وكذلك لو نظر واستدلَّ ماذا عسىٰ أن ينظر لـم يحصل له المطلوبُ إلَّا بالتعلُّمِ من جهتِهِ، ولا يحصل التعلُّمُ المطابقُ النافعُ إلَّا مع العملِ به، وإلَّا فقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥].

وقال تعالىٰ لأفضلِ الخلقِ الذي كان أزكَىٰ الناسِ نَفْسًا وأكمَلَهم عقلًا قبلَ الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢]».

وعن حاجةِ السائرِ إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ القوةِ العلمية والقوة العملية جميعًا يقولُ الإمامُ ابنُ القَيِّم -رحمه الله تعالىٰ-: «السائرُ إلىٰ الله والدارِ الآخرةِ، بل كلُّ سائرٍ إلىٰ مَقصدٍ، لا يتمُّ سيرُهُ ولا يصلُ إلىٰ مقصودِهِ إلا بقوتين: قوةٍ علميةٍ، وقوةٍ عمليةٍ.

فبالقوةِ العلميةِ يبصرُ منازِلَ الطريقِ ومواضعَ السلوكِ فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنبُ أسبابَ الهلاكِ ومواضعَ العَطَبِ وطُرُقَ المهالِكِ المنحرفَةِ عن الطريقِ الموصِّلِ فقوَّتُه العلميةُ كنورٍ عظيمٍ بيده، يمشي به في ليلةٍ مظلمةٍ شديدةِ الظُّلمَةِ، فهو يُبصرُ

بذلك النورِ ما يقعُ الماشي في الظُّلمَةِ في مثلِهِ من الوِهادِ والمتالِفِ ويعثرُ به من الأحجارِ والشوكِ وغيرِه، ويبصرُ بذلك النُّورِ أيضًا أعلامَ الطريقِ وأدلَّتَهَا المنصوبةَ عليها فلا يضلُّ عنها، فيكشفُ له النُّورُ عن الأمرين: أعلامِ الطريقِ، ومعَاطِبِهَا.

وبالقوَّةِ العمليةِ يسيرُ حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقةُ القوةِ العمليةِ، فإنَّ السَّيرَ هو عملُ المسافِرِ.

وكذلك السائرُ إلىٰ ربِّهِ إذا أبصرَ الطريقَ وأعلامَهَا وأبصرَ المعاثِرَ والوِهَادَ والطُّرُقَ النَّاكِبَةَ عنها، فقد حصل له شَطْرُ السعادةِ والفلاحِ، وبقي عليه الشَّطرُ الآخَرُ وهو أن يَضَعَ عَصَاهُ علىٰ عاتِقِهِ ويُشَمِّرَ مسافِرًا في الطريقِ قاطِعًا منازِلَهَا منزلةً بعد منزلةٍ، فكلَّما قَطَعَ مرحلةً استعدَّ لقطعِ الأخرىٰ، واستشعَرَ القُربَ من المنزلِ فهانت عليه مشقَّةُ السَّفَرِ، وكلَّما سَكَنَت نَفسُهُ من كلالِ السيرِ ومواصلةِ الشَّدِّ والرحيلِ وعَدَها قُربَ التلاقِي وبَردَ العيشِ عند الوصولِ، فَيُحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهِمَّةً، فهو يقولُ: يا نَفسُ أبشري فقد قَرُبَ المنزلُ ودنا التَّلاقِي، فلا تنقطعي في الطريقِ دون الوصولِ فَيُحَالَ بينكِ وبين منازِلِ الأحبَّةِ، فإن صبرتِ وواصلتِ المَسرَىٰ وصلتِ حميدةً مسرورةً جَذْلَةً، وتلقَّتكَ الأحبَّةُ بأنواعِ التُّحَفِ والكراماتِ، وليس بينكِ وبين ذلك إلا صبرُ ساعةٍ، فإنَّ الدنيا كلَّها كساعةٍ من ساعاتِ الآخرةِ، وعمرك درجةٌ من دَرَجِ تلك الساعةِ، فاللهَ اللهَ لا تنقطعي في المفازةِ، فهو والله الهلاكُ والعَطَبُ لو كنتِ تعلمين.

فإن استصعبتْ عليه فليذكِّرها ما أمامها من أحبَّائِها، وما لديهم من الإكرامِ والإنعامِ، وما خلفها من أعدائِهَا وما لديهم من الإهانةِ والعذابِ وأنواعِ البلاءِ، فإن رجعت فإلىٰ أعدائِها رجوعُها، وإن تقدَّمت فإلىٰ أحبائِها مصيرُهَا وإن وقفت في

طريقها أدركها أعداؤُها، فإنَّهم وراءَها في الطَّلَبِ.

ولابُدَّ لها من قسمٍ من هذه الأقسامِ الثلاثةِ[١] فلتختر أيَّها شاءت، وليجعل حديثَ الأحبَّةِ حاديَها وسائقَهَا، ونورَ معرفتهم وإرشادِهم هاديَها ودليلَهَا، وصِدقَ ودَادِهم وحُبِّهم غذاءَهَا وشرابَهَا ودواءَها، ولا يُوحِشُه انفرادُهُ في طريقِ سفرِهِ، ولا يغترُّ بكثرةِ المنقطعين، فألـمُ انقطاعِهِ وبعادِهِ واصلٌ إليه دونهم، وحظُّه من القربِ والكرامةِ مختصٌّ به دونهم، فما معنىٰ الاشتغالِ بهم والانقطاعِ معهم؟

وليعلم أنَّ هذه الوحشةَ لا تدومُ، بل هي من عوارضِ الطريقِ، فسوف تبدو له الخيامُ، وسوف يخرجُ إليه المتلقُّون يهنئونَه بالسلامة والوصولِ إليهم، فيا قُرَّةَ عينِهِ إذ ذاك، ويا فرحَتَه إذ يقولُ: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

ولا يَستوحِشُ مِـمَّا يـجده من كثافةِ الطَّبعِ وذَوْبِ النَّفسِ وبُطءِ سيرِهَا، فكلَّما أدمن علىٰ السيرِ وواظَبَ عليه غُدُوًّا ورواحًا وسَحَرًا قَرُبَ من الدَّارِ وتَلَطَّفَت تلك الكثافةُ وذابت تلك الخبائثُ والأدرانُ، فظهرت عليه هِمَّةُ المسافرين وسيَاهُم فتبدَّلت وحَشَتُهُ أُنسًا، وكثافتُهُ لطافةً، ودَرَنُهُ طَهَارَةً»[٢].

فاستكمالُ العبدِ لقوَّتيهِ العلميَّةِ والعمليَّةِ هما جَنَاحَا سيرِهِ إلىٰ الدارِ الآخرةِ مهما تخلَّفَ منهما واحدٌ فقد تخلَّفَ سيرُهُ إلىٰ الدارِ الآخرةِ بحسبِهِ، والمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله، وما كلُّ النَّاسِ بمستكمِلٍ ما أحبَّ أن يستكملَ، لذلك انقسم النَّاسُ إلىٰ سابقٍ

(١) **الأقسام الثلاثة هي**: التقدُّمُ، والوقوفُ، والرجوعُ.

(٢) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص١٧١).

مُقَرَّبٍ، ومُقتَصِدٍ في الْـخَيراتِ، وظالـمٍ لنفسهِ.

وقد قسَّم الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ النَّاس من حيث القوةُ العلميةُ والعمليةُ تقسيمًا مطابقًا فقال: «من النَّاسِ مَن يكون له القوةُ العلميةُ الكاشفةُ عن الطريقِ ومنازلِها وأعلامِها وعوارِضها ومعاثِرهَا، وتكون هذه القوةُ أغلبَ القوتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوةِ العمليةِ يُبصرُ الحقائقَ ولا يعمل بموجبهَا، ويرىٰ المتالِفَ والمخاوِف والمعاطِبَ ولا يتوَقَّاها، فهو فقيهٌ ما لـم يَحضُرِ العملُ، فإذا حَضَرَ العملُ شارك الجهَّالَ في التَّخَلُّفِ، وفارقهم في العلمِ، وهذا هو الغالِبُ علىٰ أكثرِ النفوسِ المشتغلَةِ بالعلمِ، والمعصومُ من عصَمَهُ الله، ولا قوةَ إلا بالله.

ومِنَ النَّاسِ مَن تكونُ له القوةُ العمليةُ الإراديةُ، وتكون أغلبَ القوتين عليه، وتقتضي هذه القوةُ السيرَ والسلوكَ والزهدَ في الدنيا والرغبةَ في الآخرةِ والجِدَّ والتشميرَ في العملِ، ويكون أعمىٰ البصرِ عند ورودِ الشبهاتِ في العقائدِ والانحرافاتِ في الأعمالِ والأقوالِ والمقاماتِ كما كان الأولُ ضعيفَ العقلِ عند ورودِ الشهواتِ، فَدَاءُ هذا من جهلهِ، وداءُ الأولِ من فسادِ إرادتِهِ وضعفِ عقلِهِ، وهذا حالُ أكثرِ أربابِ الفقرِ والتصوفِ السالكين علىٰ غير طريق العلمِ، بل علىٰ طريقِ الذَّوقِ والوجدِ والعادةِ، يُرَىٰ أحدُهم أعمىٰ عن مطلوبِهِ لا يَدري مَن يعبدُ ولا بماذا يعبده، فتارةً يعبده بذوقِهِ ووجدِهِ، وتارةً يعبدُهُ بعادة قومِهِ وأصحابِهِ من لبسٍ معيَّنٍ أو كَشفِ رأسٍ أو حَلقِ لحيةٍ ونحوها، وتارةً يعبده بالأوضاعِ التي وضعها بعضُ المتحذلقين وليس لها أصلٌ في الدينِ، وتارةً يعبدُهُ بما تحبُّه نفسُه وتهواه كائنًا ما كان، وهنا طريقٌ ومتاهاتٌ لا يحصيها إلا ربُّ العبادِ.

فهؤلاء كلهم عَمُون عن ربِّهم، وعن شريعتِهِ ودينِهِ، لا يعرفون شريعتَه ودينَه الذي بعثَ به رسلَهُ وأنزلَ به كُتُبَهُ ولا يقبلُ من أحدٍ دينًا سواه، كما أنَّهم لا يعرفون صفاتِ ربِّهم التي تَعَرَّفَ بها إلىٰ عبادِهِ علىٰ ألسنةِ رسلِهِ ودعاهم إلىٰ معرفتِهِ ومحبتِهِ من طريقها، فلا معرفةَ له بالربِّ ولا عبادةَ له.

ومَن كانت له هاتان القوتانِ[1]، استقامَ له سَيرُهُ إلىٰ الله، ورُجِيَ له النفوذُ، وقَوِي علىٰ رَدِّ القواطِعِ والموانعِ بحولِ الله وقوتِهِ، فإنَّ القواطِعَ كثيرةٌ شأنُها شديدٌ، لا يَخلُصُ من حبائِلِهَا إلا الواحدُ بعد الواحدِ، ولولا القواطعُ والآفاتُ لكانت الطريقُ معمورةً بالسالكين ولو شاءَ الله لأزالها وذهَبَ بها، ولكنَّ الله تعالىٰ يَفعَلُ ما يريدُ.

والوقتُ -كما قيل-: سيفٌ، فإن قطعتَه وإلا قطَعَكَ، فإذا كان السيرُ ضعيفًا والْـهِمَّةُ ضعيفةً، والعلمُ بالطريقِ ضعيفًا، والقواطعُ الخارجةُ والداخلةُ كثيرةً شديدةً فإنَّه جَهدُ البلاءِ ودَرَكُ الشقاءِ وشماتَةُ الأعداءِ، إلا أن يتداركه الله برحمةٍ منه من حيث لا يحتسب فيأخذَ بيده ويخلِّصهُ من أيدي القواطعِ، والله وليُّ التوفيقِ»[2].

ولكنَّ الأمرَ لو مرَّ كَفَافًا علىٰ صاحبِ العلمِ، لا عليه ولا له لكان هَيِّنًا، ولكنَّه محكومٌ بقاعدةٍ من القواعدِ الهامَّةِ في دينِ الإسلامِ العظيمِ.

*** قاعدة:**

كلَّما كانت الرتبةُ في العلمِ عاليةً، كانت المؤاخذةُ علىٰ فُقدانِ العملِ شديدةً وصارمةً.

---

(١) أي: القوة العلمية والقوة العملية.

(٢) «طريق الهجرتين» (ص١٧٢).

وهذه القاعدةُ من القواعدِ العظيمةِ في الدِّين، وهي تُلزِمُ كلَّ مَن عَلِمَ أن يعملَ ولا يتوانىٰ في العملِ، وتقضي بأنَّ الذين يفصلون العلمَ عن العملِ ليسوا علىٰ شيءٍ، وإنَّما أمرُهُم إلىٰ الله، هو يفصلُ بينهم بحكمِهِ، وهو العليمُ الحكيمُ.

والأدلَّةُ علىٰ هذه القاعدة من الكتابِ والسنَّةِ كثيرةٌ، منها:

١ - قولُهُ تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾؛ أي: علىٰ الحقِّ وعصمناك من موافقتِهم.

﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾، أي: تميلُ، ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾، أي: ركونًا قليلًا. قيل: ظاهرُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ وباطنُه إخبارٌ عن ثقيفٍ، والمعنىٰ: وإن كادوا لَيُركِنُونَكَ، أي: كادوا يخبرون عنك بأنَّك مِلتَ إلىٰ قولهم؛ فنسبَ فعلَهم إليه مجازًا واتساعًا؛ كما تقولُ لرجلٍ: كدتَ تقتلُ نفسَك، أي: كاد الناسُ يقتلونك بسبب ما فعلتَ؛ ذكره المهدويُّ.

وقيل: ما كان منه هَمٌّ بالركونِ إليهم، بل المعنىٰ: ولولا فَضلُ الله عليك لكان منكَ مَيلٌ إلىٰ موافقتهم، ولكن تَمَّ فضلُ الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيريُّ.

وقال ابن عباسٍ: كان رسولُ الله ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريفٌ للأمَّةِ لئَلا يركَنَ أحدٌ منهم إلىٰ المشركين في شيءٍ من أحكامِ الله تعالىٰ وشرائعِه.

وقولُهُ: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾، أي: لو رَكَنتَ لأذقناكَ مثلَي عذابِ الحياةِ في الدنيا، ومِثلَي عذابِ المماتِ في الآخرةِ؛ قاله ابنُ عباسٍ

ومجاهدٌ وغيرهما، وهذا غايةُ الوعيدِ، وكلَّما كانت أعلىٰ كان العذابُ عند المخالفةِ أعظمَ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وضِعفُ الشيءِ مِثلُهُ مرَّتينِ، وقد يكونُ الضِّعفُ النصيبَ؛ كقولِهِ ﷻ: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ [الأعراف:٣٨][1].

وقال النَّسَفيُّ -عفا الله عنه-: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾، لأذقناكَ عذابَ الآخرةِ وعذابَ القبرِ مضاعَفَينِ لعظيمِ ذنبكِ بشرفِ منزلَتِكَ ونبوَّتِك، كما قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وفي ذكر الكَيدُودَةِ وتقليلِهَا مع إتباعِهَا الوعيدَ الشديدَ بالعذابِ المُضَاعَفِ في الدَّارَين دليلٌ علىٰ أنَّ القبيحَ يَعظُمُ قُبحُهُ بمقدارِ عِظَمِ شأنِ فاعلِهِ»[2].

وقال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾، بيَّن -جلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ تثبيتَه لنبيِّهِ ﷺ، وعصمتَه له من الركونِ إلىٰ الكفَّارِ، وأنَّه لو رَكَنَ إليهم لأذاقَهُ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ؛ أي مِثلَي

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ٣٠٥).

(٢) «تفسير النسفي» (٢/ ٣٢٣).

والنسفيُّ هو عبد الله بن أحمد بن محمود، والنسفيُّ نسبةٌ إلىٰ بلدةٍ من بلادِ ما وراء النهر، كان حنفيًّا متعصِّبًا، واختصر تفسيره المسمَّىٰ «بمدارك التنزيل وحقائق التأويل» من تفسير البيضاوي والزمخشري، والنسفيُّ من غلاة الأشعرية المؤولةِ، أوَّلَ جميعَ الصِّفَاتِ، وكان متعصِّبًا في التأويل.

عذابِ الحياةِ في الدنيا ومِثْلَي عذابِ المماتِ في الآخرةِ، وبهذا جزم القرطبي في تفسيرِهِ.

وقال بعضُهم: المرادُ بِضعفِ عذابِ المماتِ: العذابُ المضاعَفُ في القبرِ، والمرادُ بِضعفِ الحياةِ: العذابُ المضاعفُ في الآخرةِ بعد حياة البعثِ، وبهذا جَزَمَ الزمخشريُّ وغيرُهُ، والآيةُ تشملُ الجميعَ.

وهذا الذي ذكره هنا من شِدَّةِ الجزاءِ لنبيِّه -لو خَالَفَ- بيَّنَه في غيرِ هذا الموضعِ؛ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وهذا الذي دلَّت عليه هذه الآيةُ من أنَّه إذا كانت الدرجةُ أعلىٰ كان الجزاءُ عند المخالفةِ أعظمَ، بيَّنَهُ في موضع آخر، كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

وقد أجادَ مَن قال:

وَكَبَائِرُ الرَّجُلِ الصَّغِيرِ صَغَائِرُ ... وَصَغَائِرُ الرَّجُلِ الكَبِيرِ كَبَائِرُ

وهذه الآيةُ الكريمةُ أوضحت غايةَ الإيضاحِ براءةَ نبيِّنَا محمَّدٍ ﷺ من مُقَارَبةِ الركونِ إلىٰ الكفَّارِ، فضلًا عن نَفسِ الركونِ؛ لأنَّ «لَولا» حرفُ امتناعٍ لوجود، فمقاربةُ الركونِ منعتها «لولا» الامتناعيةُ لوجودِ التثبيتِ من الله -جلَّ وعلا- لأكرمِ خلقِهِ ﷺ، فصَحَّ يقينًا انتفاءُ مقاربةِ الركونِ فضلًا عن الركونِ نفسِهِ.

وهذه الآيةُ تبيِّنُ أنَّه لم يُقَارِب الركونَ إليهم ألَبَتَّةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: قاربتَ تركنُ إليهم، هو عَينُ الممنوعِ بـ «لولا»

الامتناعيةِ كما ترىٰ، ومعنىٰ: «تَركَنُ إليهِمْ»: تميلُ إليهم»[(١)].

٢- وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٠-٣١].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالىٰ واعِظًا نساءَ النبيِّ ﷺ اللاتي اخترن الله ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ، واستقرَّ أمرهنَّ تحت رسولِ الله ﷺ، فناسَبَ أن يخبرَهُنَّ بحكمهنَّ وتخصيصهنَّ دون سائر النساءِ بأنَّ مَن يأتِ منهنَّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: وهو النُّشُوزُ وسُوءُ الخُلُقِ، وعلىٰ كلِّ تقديرٍ فهو شَرطٌ، والشَّرطُ لا يقتضي الوقوعَ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وكقولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، فلمَّا كانت محلتُهنَّ رفيعةً ناسب أن يجعلَ الذنبَ لو وقعَ منهنَّ مُغَلَّظًا؛ صيانةً لجنابهنَّ وحجابهنَّ الرفيعِ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وقال مالكٌ عن زيدِ بن أسلمَ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، قال: في الدنيا والآخرةِ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلًا هَيِّنًا، ثمَّ ذَكَرَ عدلَهُ وفضلَه في قولِهِ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: تُطع الله ورسولَهُ وتَستَجِب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أي: في الجنَّةِ، فإنَّهنَّ في منازِلِ رسولِ الله ﷺ في أعلىٰ علِّيين، فوق منازِل جميعِ الخلائقِ في «الوسيلة»، التي

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٥٦٤).

هي أقربُ منازلِ الجنَّةِ إلىٰ العرشِ»[١].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماءُ: لَمَّا اختار نساءُ النَّبيِّ ﷺ رسولَ الله ﷺ شكرهنَّ الله علىٰ ذلك، فقال تكرمةً لهنَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢]، وبيَّن حكمهنَّ عن غيرهنَّ فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، وجعل ثوابَ طاعتهنَّ وعقاب معصيتهنَّ أكثرَ مِمَّا لغيرهنَّ فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾، فأخبر تعالىٰ أنَّ مَن جاء من نساءِ النبيِّ ﷺ بفاحشةٍ -والله عاصمٌ رسولَهُ ﷺ من ذلك- يُضَاعَف لها العذابُ ضِعفين؛ لشرفِ منزلتهنَّ وفَضلِ درجتهنَّ، وتقدُّمِهنَّ علىٰ سائرِ النساءِ أجمع.

وكذلك بيَّنت الشريعةُ في غيرِ ما موضعٍ أنَّه كلَّما تضاعفت الحُرُمَاتُ فهتكت تضاعفت العقوباتُ؛ ولذلك ضُوعِفَ حَدُّ الحُرِّ علىٰ العبدِ والثيبِ علىٰ البِكرِ»[٢].

وقال النسفيُّ -عفا اللهُ عنه-: «قولُه: ضِعفَينِ، ضِعفَي عذابِ غيرهنَّ من النساءِ؛ لأنَّ ما قَبُحَ من سائرِ النساءِ كان أقبحَ منهنَّ، فزيادةُ قُبحِ المعصيةِ تتبعُ زيادةَ الفضلِ، وليس لأحدٍ من النساءِ مثلُ نساءِ النبيِّ ﷺ، ولذا كان الذَّمُّ للعاصي العالِمِ أشدَّ من العاصي الجاهلِ؛ لأنَّ المعصيةَ من العالِمِ أقبحُ»[٣].

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٤٨١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٦٩).

(٣) «تفسير النسفي» (٣/ ٣٠١).

٣- وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

قال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرِ هذه الآيةِ: وقال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، وأبو هريرةَ، وأنسُ بن مالكٍ رضي الله عنهم، وعطاءٌ، وسعيدُ بن جبيرٍ، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وإبراهيمُ النخعيُّ، وأبو وائلٍ، وأبو صالحٍ، ومحمدُ بن كعبٍ، وزيدُ بنُ أسلم، والزهريُّ، والسُّدِّيُّ، والضَّحَّاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك».

وهذه الآيةُ الكريمةُ تضمَّنَت أمرين:

الأولُ: أَنَّ مَن جاءَ ربَّه يومَ القيامةِ بالسيئةِ كالشركِ يُكَبُّ وجهُهُ في النَّارِ.

والثاني: أنَّ السيئةَ تُجزَىٰ بمثلِهَا من غيرِ زيادةٍ، وهذان الأمران جاءَا موضَّحين في غيرِ هذا الموضعِ، كقولِهِ تعالىٰ في الأولِ منهما: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه:٧٤]، وكقولِه تعالىٰ في الثاني منهما: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦].

وإذا علمتَ أنَّ السيئاتِ لا تُضَاعَفُ، فاعلم أنَّ السيئةَ قد تَعظُمُ فَيَعظُمُ جزاؤها بسببِ حُرمَةِ المكانِ، كقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج:٢٥]، أو حُرمَةِ الزمانِ، كقوله تعالىٰ في الأشهرِ الحرُمِ: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة:٣٦].

وقد دلَّت آياتٌ من كتاب الله أنَّ العذابَ يعظُمُ بسببِ عِظَمِ الإنسانِ المخالِفِ،

كقولِهِ تعالىٰ في نبيِّناﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، وكقوله تعالىٰ في أزواجِهِﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

ومضاعفةُ السيئةِ المشار إليها في هاتين الآيتين، إن كانت بسبب عِظَمِ الذنبِ، حتىٰ صار في عِظَمِهِ كذنبين، فلا إشكالَ، وإن كانت مضاعفةُ جزاءِ السيئةِ كانت هاتان الآيتان مُخَصِّصتَينِ للآياتِ المصرِّحةِ؛ لأنَّ السيئةَ لا تُجزىٰ إلا بمثلها، والجميع محتملٌ، والعلمُ عند الله تعالىٰ»[1].

٤- وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾، هذا استفهامُ توبيخٍ، والمرادُ في قولِ أهلِ التأويلِ: علماءُ اليهود. قال ابنُ عباسٍ: كان يهودُ المدينةِ يقولُ الرجلُ منهم لصهرِهِ ولذي قرابتِهِ ولمن بينه وبينه رَضَاعٌ من المسلمين: اثبُت علىٰ الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجلُ -يريدون محمدًاﷺ- فإنَّ أمرَهُ حقٌّ؛ فكانوا يأمرون النَّاسَ بذلك ولا يفعلونه.

وعن ابن عباسٍ أيضًا: كان الأحبارُ يأمرون مقلِّديهم وأتباعَهم باتباعِ التوراةِ وكانوا يخالفونها في جحدِهم صفةَ مُحمَّدٍ ﷺ.

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٤٤٥).

وقال ابنُ جُريجٍ: كان الأحبارُ يحضُّون علىٰ طاعة الله، وكانوا هم يُواقعون المعاصي.

وقالت فرقةٌ: كانوا يحضُّون علىٰ الصدقةِ ويبخلون، والمعنىٰ متقاربٌ.

وقد دلَّت ألفاظُ الآيةِ علىٰ أنَّ عقوبةَ مَن كان عالمًا بالمعروفِ والمنكرِ ووجوبِ القيامِ بوظيفةِ كلِّ واحدٍ منهما أشدُّ ممَّن لم يعلمه؛ وإنما ذلك، لأنَّه كالمستهينِ بحرماتِ الله تعالىٰ، ومستخِفٌّ بأحكامِهِ، وهو ممَّن لا ينتفعُ بعلمهِ.

واعلم وفَّقَكَ الله تعالىٰ أنَّ التوبيخَ في الآيةِ بسببِ تركِ فعلِ البرِّ لا بسببِ الأمرِ بالبرِّ، ولهذا ذَمَّ الله تعالىٰ في كتابِهِ قومًا كانوا يأمرون بأعمالِ البرِّ ولا يعملون بها، ووبَّخهم به توبيخًا يُتلَىٰ علىٰ طُولِ الدهرِ إلىٰ يوم القيامةِ، فقالَ تعَالَىٰ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وقال منصورٌ الفقيهُ فأحسنَ:

إنَّ قَومًا يَأمُرُونَا بالَّذي لا يفعَلُونَا
لَمَجَانِينُ وَإن هُم لَم يَكُونُوا يُصرَعُونَا

وقال أبو العتاهية:

وَصَفتَ التُّقَي حَتَّىٰ كَأنكَ ذُو تُقًىٰ وَرِيحُ الْخَطَايَا مِن ثِيَابِكَ تَسطَعُ

وقال أبو عمرِو بنُ مَطَرٍ: حضرتُ مجلسَ أبي عثمانَ الْحِيريِّ الزاهدِ فخرجَ وقَعَدَ علىٰ موضعِهِ الذي كانَ يقعدُ عليه للتذكيرِ، فسكت حتىٰ طالَ سكوتُهُ، فناداه رجلٌ كان يُعرفُ بأبي العبَّاسِ: ترىٰ أن تقولَ في سكوتِك شيئًا؟ فأنشأَ يقولُ:

وَغَيرُ تَقِيٍّ يَأمُرُ النَّاسَ بالتُّقَىٰ طَبِيبٌ يُدَاوِي والطَّبِيبُ مَرِيضُ

قال: فارتفعت الأصواتُ بالبكاءِ والضجيجِ»[١].

قلتُ: والتوبيخُ في الآيةِ -كما مرَّ- بسببِ تركِ البِرِّ لا بسببِ الأمرِ بالبِرِّ، وعليه فينبغي أن نَفصِلَ بين أمرينَ: بين فعلِ المعروفِ، والأمرِ بالمعروفِ، وكلاهما مكلَّفٌ به العبدُ، وكلاهما مطلوبٌ من العبدِ، وكذلك ينبغي الفصلُ بين النهي عن المنكرِ، وهو واجبٌ في ذاتِهِ، وبين الانتهاءِ عن المنكرِ، وهو واجبٌ في ذاتِهِ.

*** قاعدة:**

الصَّحيحُ أنَّ العالِـمَ يأمرُ بالمعروفِ وإن لـم يَفْعَلهُ، وينهىٰ عن المنكرِ وإن ارتكبه، فكلٌّ مَن الأمرِ بالمعروفِ وفِعْلِهِ واجبٌ لا يسقطُ أحدُهما بتركِ الآخَرِ علىٰ أَصَحِّ قَوْلَـي العلماءِ.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقولُ تعالىٰ: كيف يليقُ بكم يا معشرَ أهلِ الكتابِ وأنتم تأمرون النَّاسَ بالبِرِّ، وهو جِمَاعُ الخيرِ، أن تنسَوا أنفسَكم فلا تأتمرون بما تأمرون النَّاسَ به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتابَ وتعلمون ما فيه علىٰ مَن قَصَّرَ في أوامرِ الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسِكم؟ فتنبَّهوا من رقدتكم، وتبصَّروا من عَمايتكم.

والغرضُ أنَّ الله تعالىٰ ذَمَّهم علىٰ هذا الصنيعِ ونبَّههم علىٰ خطئهم في حقِّ أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المرادُ ذمَّهم علىٰ أمرِهم بالبِرِّ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٢).

مع تركِهم له، بل علىٰ تركهم له، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ معروفٌ وهو واجبٌ علىٰ العالـمِ، ولكنَّ الواجبَ والأولىٰ بالعالِـم أن يفعلَه مع مَن أمرهم به ولا يتخلَّفَ عنهم، كما قالَ شعيبٌ عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، فكلٌّ من الأمرِ بالمعروفِ وفعلِهِ واجبٌ لا يسقطُ أحدهما بتركِ الآخَرِ علىٰ أصحِّ قولَي العلماءِ من السَّلَفِ والخَلَفِ، وذهَبَ بعضُهم إلىٰ أنَّ مرتكبَ المعاصي لا ينهىٰ غيرَهُ عنها، وهذا ضعيفٌ، وأضعفُ منه تَـمَسُّكُهم بهذه الآيةِ فإنه لا حُجَّةَ لَـهُم فيها، والصحيحُ أنَّ العالِـمَ يأمرُ بالمعروف وإن لـم يفعله، وينهىٰ عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالكٌ: عن ربيعةَ: سمعتُ سعيدَ بنَ جبيرٍ يقولُ: لو كَانَ المرءُ لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهىٰ عن المنكرِ حتَّىٰ لا يكونَ فيه شيءٌ، ما أَمَرَ أحدٌ بمعروفٍ ولا نهىٰ عن منكرٍ، قال مالكٌ: وصَدَقَ، مَن ذا الذي ليس فيه شيءٌ؟!

قلتُ -أي: ابنُ كثيرٍ رحمه الله**-:** لكنَّه والحالةُ هذه مذمومٌ علىٰ تَركِ الطاعةِ، وفعلِ المعصيةِ؛ لعلمِهِ بها ومخالفتِهِ علىٰ بصيرةٍ، فإنَّه ليس مَن يَعْلَمُ كَمَنْ لا يعلمُ»[1].

وقال السعديُّ رحمه الله: «وليسَ في الآيةِ أنَّ الإنسانَ إذا لـم يَقُم بما أَمَرَ به أنَّه يترك الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ؛ لأنَّها دلَّت علىٰ التوبيخِ بالنسبةِ إلىٰ الواجبين، وإلا فِمن المعلوم أنَّ علىٰ الإنسانِ واجبينِ: أمرُ غيره ونهيُهُ، وأمرُ نفسِهِ ونهيُها، فتركُ أحدِهما لا يكونُ رخصةً في تركِ الآخَرِ، فإنَّ الكمالَ أن يقومَ الإنسانُ بالواجبين والنقصَ الكاملَ أن يترَكَهُما، وأمَّا قيامُهُ بأحدِهما دون الآخرِ فليس في رتبةِ

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٨٥).

الأولِ وهو دونَ الأخيرِ، وأيضًا، فإنَّ النفوسَ مجبولةٌ علىٰ عدمِ الانقيادِ لمن يخالِفُ قولُهُ فعلَهُ، فاقتداؤهم بالأفعالِ أبلغُ من اقتدائِهم بالأقوالِ المجرَّدةِ»[١].

٥- وَمَا رَوَىٰ أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ رضي الله عنهما أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**يُجَاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيَامَةِ، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقتَابُهُ، فَيدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَتَجتَمِعُ أَهلُ النَّارِ عَلِيهِ، فَيقُولُونَ: يَا فُلانُ: مَا شأْنُكَ؟ أَلَستَ كُنتَ تَأمُرُ بالمعَرُوفِ، وتَنهَىٰ عَنِ المُنكَرِ؟ فَيقُولُ: كُنتُ آمُرُكُم بالمعرُوفِ ولا آتيهِ، وأنهَاكُم عَنِ الشَّرِّ وآتيهِ**»[٢]. رواه البخاري ومسلم.

وفي روايةٍ للبخاريِّ[٣] عن أُسَامَةَ رضي الله عنه، عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطَرَحُ فِي النَّارِ فَيَطْحَنُ فِيهَا كَمَا يَطْحَنُ الحِمَارُ برحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهلُ النَّارِ فَيقُولُونَ: أَي فُلانٌ، أَلَستَ كُنتَ تأمُرُ بالمعَرُوفِ وتَنْهَىٰ عنِ المُنكَرِ؟ فَيقُولُ: إنِّي كُنتُ آمُرُ بالمعَرُوفِ ولا أفعَلُهُ، وأنهَىٰ عنِ المنكرِ وأفعَلُهُ**».

قال الحافظُ رحمه الله: «قولُهُ: **فَيَطحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ الحِمَارِ**» في روايةِ الكُشْمِيهَنِي: «**كَمَا يُطْحَنُ الحمارُ**» كذا رأيتُ في نسخةٍ معتمدةٍ، «**فَيُطْحَنُ**» بضمِّ أَوَّلِهِ علىٰ البناءِ للمجهولِ، وفي أخرىٰ بفتحِ أولِهِ، وهو أَوجَهُ، ففي رواية سفيان وأبي معاوية «**فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ**» وفي روايةِ عاصمٍ: «**يَستَدِيرُ فِيهَا كَمَا يَستَدِيرُ الحِمَارُ**»، وكذا في رواية أبي معاوية.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) برقم (٦٦٨٥).

والأقتابُ: جمعُ قتبٍ بكسرِ القافِ، وسكونِ المثنَّاةِ بعدها موحَّدةٌ هي الأمعاءُ، واندلاقُها: خروجُها بسرعةٍ، يُقال: اندلَقَ السيفُ من غِمدِهِ، إذا خرج من غيرِ أن يَسُلَّهُ أحدٌ.

قولُهُ: «**فَيُطيفُ بهِ أهلُ النَّارِ**»، أي: يجتمعون حوله، يقال: أطاف به القومُ إذا حَلَّقوا حولَه حلقةً، وإن لـم يدوروا، وطافوا إذا داروا حوله، وبهذا التقديرِ يظهرُ خطأُ من قال: إنهما بمعنًىٰ واحدٍ»(١).

وقال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٣): «يُجَاءُ بالرَّجُلِ»؛ أي: الذي يُخَالِفُ علمُهُ عملَه، الاندلاقُ: خروجُ الشيءِ من مكانِه بسرعةٍ، والأقتَابُ -جمعُ قتبٍ بكسرِ القافِ-: الأمعاءُ، «**كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ برحَاهُ**»؛ أي: الطاحونُ.

فانظر يا أخي إلىٰ حالِ مَن قال ولـم يفعل كيف تَنصَبُّ مصارينُهُ من جوفِهِ، وتخرجُ من دُبُرِهِ، ويدورُ بها دوران الحمارِ بالطاحونِ، والنَّاسُ تنظرُ إليه وتتعجَّبُ من هيئتِهِ، نسألُ الله السلامةَ».

٦- وعَن زَيدِ بن أَرقَمَ ﷺ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِن قَلبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِن نَفسٍ لا تَشبَعُ، وَمِن دَعوَةٍ لا يُستَجَابُ لَـهَا**» رواه مسلم (٢٧٢٢).

٧- وعَن أَبي بَرزَةَ الأسلَمِيِّ ﷺ قالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَن عُمُرِهِ فِيمَ أفنَاهُ؟ وَعَن عِلمِهِ فِيمَ عَمِلَ فيهِ؟ وعَن مَالِهِ مِن**

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٥٦).

أَينَ اكتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أنفَقَهُ؟ وَعَن جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ؟». رواه الترمذي (٢٤١٧)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٩٠).

تزولُ قدما عبدٍ، أي: من موقفه للحسابِ إلىٰ الْـجَنَّةِ أو النَّار.

٨- وعن عَبدِ الله بن مَسعُودٍ ﵁ عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «**لا تَزُولُ قَدَمُ ابن آدَمَ يَومَ القِيَامَةِ مِن عِندِ رَبِّه حَتَّىٰ يُسألَ عَن خمسٍ: عَن عُمُرِهِ فِيمَ أفنَاهُ؟ وَعَن شَبَابِهِ فيمَ أبلاهُ؟ ومَالِهِ مِن أَينَ اكتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أنفقَهُ؟ ومَاذا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**» رواه الترمذي (٢٤١٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٨٩)، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٩٤٦).

٩- وعن جُندُبِ بن عَبدِ الله الأزديِّ ﵁، صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، عن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الَّذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ وَينْسَىٰ نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ، يُضيءُ للنَّاسِ ويَحرِقُ نَفسَهُ**» رواه الطبراني في «الكبير» (١٦٨١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨٥): «رجاله موثقون»، وقال المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٤٨): «إسنادُهُ حسنٌ إن شاء الله». وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٦).

١٠- وعَن أَبِي بَرزَةَ ﵁ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ وَينسَىٰ نَفسَهُ، مَثَلُ الفَتيلَةِ، تُضيءُ عَلَىٰ النَّاسِ، وتَحرِقُ نَفسَهَا**» رواه البزار، كذا قال المنذريُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٤٧)، وقال الألباني: «ولم ينسبه الهيثميُّ ثم السيوطيُّ إلا للطبراني في «الكبير» وضَعفُهُ ينجبرُ بالذي قبله» كذا قال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٦).

الفتيلَةُ: الذُّبَالَةُ التي تُغمَسُ في الزيتِ لتضيءَ.

١١- وعَن أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**مَرَرْتُ لَيلَةَ أُسرِيَ بِي بِأقوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهم بِمقَارِيضَ مِن نَارٍ، قُلتُ: مَن هؤلاءِ يَا جِبريلُ؟ قَالَ: خُطبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذينَ يَقُولُونَ مَا لا يَفعَلُونَ**» قال الألباني: هذا الحديثُ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٥-موارد الظمآن) وابن أبي الدنيا، والبيهقي، وأحمد (٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩).

وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٣).

١٢- وفي حديثِ المنامِ الطويلِ الذي رواه سَمُرَةُ بنُ جُندُبٍ ﷺ قالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِـمَّا يُكثِرُ أَن يَقُولَ لأصحَابِهِ: «**هَل رَأىٰ أَحَدٌ مِنكُم رؤيَا؟**»، قالَ: فَيَقُصُّ عَلَيهِ مَن شَاءَ الله أَن يَقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَدَاةٍ: «**إنَّهُ أَتَانِي اللَّيلَةَ آتيَانِ، وَإنَّهُمَا ابتَعَثَانِي، وَإنَّهُمَا قالا لِي: انطَلِقْ، وَإنِّي انطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإنَّا أتينَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضطَجِعٍ، وإذَا آخرُ قَائمٌ عَلَيهِ بصخرَةٍ، وَإذَا هُوَ يَهوي بالصَّخرَةِ لِرَأسِهِ فَيَثْلَغُ رَأسَهُ، فَيَتَدَهدَهُ الحَجَرُ هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجرَ فَيَأخُذُهُ، فَلا يَرجِعُ إلَيهِ حَتَّىٰ يَصِحَّ رَأسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثلَمَا فَعَلَ بِهِ مَرَّةَ الأُولَىٰ، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله مَا هَذَانِ؟ قَالا لِي: انطَلِق، انطَلِق...**

قَالَ: قَالا لِي: أمَا إنَّا سَنُخبِرُكَ؛ أمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الَّذِي أَتَيتَ عَلَيهِ يُثلَغُ رَأسُهُ بالحَجَرِ، فَإنَّهُ الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فَيرفُضُهُ، ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المكتُوبَةِ...»[١]، متفقٌ عليه، واللفظُ للبخاري، وهو عند مسلمٍ مختصرًا.

قال الحافظ: «قولُهُ: «**آتيَانِ**»: في آخرِ الحديثِ أنهما جبريلُ وميكائيلُ.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٠)، ومسلم (٢٢٧٥).

قولُهُ: «**وَإِنَّهُمَا ابتَعَثَانِي**»: أرسلاني، كذا قال في «الصحاح»: بعثه وابتعثه: أرسله، يقال: ابتعثه إذا أثاره وأذهبه، وقال ابنُ هبيرةَ: معنىٰ ابتعثاني: أيقظاني، ويحتمل أن يكون رأىٰ في المنامِ أنهما أيقظاه فرأىٰ ما رأىٰ في المنامِ، ووصفه بعد أن أفاقَ علىٰ أن منامه كاليقظةِ، لكن لما رأىٰ مثالًا كشفه التعبيرُ دلَّ علىٰ أنَّه كان منامًا.

قولُهُ: «**وَإِنَّا أَتَينَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضطَجِعٍ**» في روايةِ جريرٍ: «**مُستَلقٍ علَىٰ قَفَاهُ**».

قولُهُ: «**يَهوِي**»: يسقُط.

«**وَيَثْلَغُ رأسَهُ**»: يَشْدُخُهُ، والشَّدْخُ: كسر الشيءِ الأجوفِ.

«**فَيَتَدَهْدَهُ**»: يتدحرجُ.

«**هَاهُنَا**»: أي: إلىٰ جهةِ الضاربِ.

«**فَيَتْبَعُ**»: أي الرجلُ القائمُ.

«**فَلا يَرجِعُ إلَيه**»: أي إلىٰ الذي شُدِخَ رأسُهُ.

قولُهُ: «**فَيَرفُضُهُ**»: يتركهُ، قال ابنُ هبيرةَ: رَفضُ القرآنِ بعد حفظهِ جنايةٌ عظيمةٌ لأنَّه يُوهم أنَّه رأىٰ فيه ما يُوجب رفضه، فلمَّا رَفَضَ أشرفَ الأشياءِ وهو القرآنُ، عُوقب في أشرفِ أعضائِهِ وهو الرأسُ.

قولُهُ: «**وَينَامُ عن الصَّلاةِ المكتُوبَةِ**»: هذا أوضحُ من روايةِ جرير بن حازمٍ بلفظ: «**عَلَّمَهُ الله القُرآنَ فَنَامَ عنهُ باللَّيلِ ولـم يَعمل فيه بالنَّهارِ**»، فإنَّ ظاهره أنَّه يُعَذَّبُ علىٰ تَركِ القرآنِ بالليلِ، بخلافِ روايةِ عوفٍ فإنَّه علىٰ تركهِ الصلاة المكتوبة،

ويُحتمل أن يكون التعذيبُ علىٰ مجموعِ الأمرين: تركِ القراءةِ، وتركِ العملِ»[1].

١٣- وعن لُقمَانَ بن عامرٍ قالَ: كَانَ أَبُو الدَّردَاءِ ﵁ يقولُ: «إِنَّمَا أخشَىٰ مِن رَبِّي يومَ القِيَامَةِ أَن يَدعُوَنِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلائقِ، فَيقُولَ لِي: يَا عُوَيْمِرُ، فَأَقُولُ: لَبَّيكَ رَبِّ، فَيَقُولُ: مَا عَمِلتَ فِيمَا عَلِمتَ؟» قال المنذري: «رواه البيهقيُّ». وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٥)، ورواه ابن عبد البر في الجامع (٢/ ٢، ٣) والدارمي (١/ ٩٤) ولفظُهُ فيه: قال أبو الدرداء: «مَا أَخَافُ عَلَىٰ نَفسِي أَن يُقَالَ لِي: مَا عَلِمتَ؟ ولَكِن أَخَافُ أَن يُقَالَ لِي: مَاذا عَمِلتَ؟».

قلتُ: ما مرَّ من آياتِ الكتابِ العزيزِ الصريحةِ، وسنَّةِ النبيِّ ﷺ الصحيحةِ، قاضٍ بصدقِ القاعدةِ التي ذكرتُ قبلَ سَوقِ الأدلَّةِ، وهي: أنَّه كلَّما كانت الرتبةُ في العلمِ عاليةً، كانت المؤاخذةُ علىٰ فقدانِ العملِ شديدةً وصارمةً.

لذلك كان العملُ بالعلمِ أمرًا لازمًا لكلِّ مَن عَلِمَ، حتىٰ يخرجَ من دائرةِ الوعيدِ لمن عَلِمَ ولـم يعمل، وتأتي الوصيةُ بذلك من الأئمةِ ﷭ كي تحثَّ علىٰ بَذلِ المجهودِ، واستفراغِ الوُسعِ في العملِ علىٰ مقتضىٰ العلمِ الذي مَنَّ الله به وأعطاه.

قال الخطيبُ ؒ: «ثمَّ إنِّي موصيك يا طالبَ العلمِ بإخلاصِ النيةِ في طَلَبِهِ، وإجهادِ النَّفسِ علىٰ العملِ بموجبِهِ، فإنَّ العلمَ شجرةٌ، والعَمَلَ ثمرةٌ، وليسَ يُعَدُّ عالِـمًا مَن لـم يكن بعلمِهِ عاملًا.

وقيل: العلمُ والدٌ، والعملُ مولودٌ، والعلمُ مع العملِ، والروايةُ مع الدرايةِ، فلا تَأنَس بالعملِ ما دُمتَ مستوحِشًا من العلمِ، ولا تأنَس بالعلمِ ما كنتَ مُقَصِّرًا

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٤٥٧).

في العملِ، ولكن اجمعْ بينهما، وإن قلَّ نصيبُك منهما.

وما شيءٌ أضعَفَ من عالِمٍ تَرَكَ النَّاسُ علمَهُ لفَسَادِ طريقتِهِ وجاهلٍ أَخَذَ النَّاسُ بجهلِهِ لنظرِهم إلىٰ عبادتِهِ.

والقليلُ من هذا مع القليلِ من هذا أنجىٰ في العاقبةِ، إذا تفضَّلَ الله بالرحمةِ، وتَـمَّمَ علىٰ عبدِهِ النِّعمة، فأمَّا المدافعةُ والإهمالُ، وحُبُّ الهوينىٰ، والاسترسالُ، وإيثارُ الخَفضِ والدَّعَةِ، والميلُ مع الراحةِ والسَّعَةِ، فإنَّ خواتمَ هذه الخِصَالِ ذميمةٌ وعُقباها كريهةٌ وخيمةٌ.

والعلمُ يُرادُ للعمل كما العملُ يرادُ للنجاةِ، فإذا كان العملُ قاصرًا عن العلمِ كان العلمُ كَلًّا علىٰ العالِـمِ، ونعوذُ بالله من علمٍ عادَ كَلًّا، وأَورَثَ ذُلًّا، وصار في رقبةِ صاحبِهِ غُلًّا.

قال بعضُ الحكماءِ: العلمُ خادمُ العملِ، والعملُ غايةُ العلم، فلولا العملُ لـم يُطلَب علمٌ، ولولا العلمُ لـم يُطلَب عملٌ، ولأن أدَعَ الحَقَّ جَهلًا به، أحَبُّ إليَّ من أن أدَعَهُ زُهدًا فيه.

قال الشيخُ: وهل أدرَكَ مَن أدركَ من السَّلَفِ الماضين الدَّرَجَاتِ العُلَا إلا بإخلاصِ المعتَقَدِ، والعملِ الصالحِ، والزُّهدِ الغالبِ في كلِّ ما راق من الدنيا؟

وهل وصل الحكماءُ إلىٰ السعادةِ العظمىٰ إلا بالتَّشميرِ في السعي والرضا بالميسورِ وبَذلِ ما فَضَلَ عن الحاجةِ للسائلِ والمحرومِ؟

وهل جَامِعُ كُتُب العلمِ إلا كجامعِ الفِضَّة والذَّهَبِ؟ وهل المنهومُ بها إلا كالحريصِ الجَشعِ عليهما؟ وهل المُغرَمُ بحبِّهَا إلا ككانِزهما؟

وكما لا تنفعُ الأموالُ إلا بإنفاقِها، كذلك لا تنفعُ العلوم إلا لمن عَمِلَ بها وراعَىٰ واجباتِها، فلينظر امرؤٌ لنفسِهِ، وليغتنِم وقتَه فإنَّ الثَّواءَ قليلٌ، والرحيلَ قريبٌ، والطريقَ مخوفٌ، والاغترارَ غالِبٌ، والخَطَرَ عظيمٌ، والنَّاقِدَ بصيرٌ، والله تعالىٰ بالمرصَادِ، وإليه المرجعُ والمعادُ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨][(١)].

فالمُعَوَّلُ علىٰ العملِ، وإنما هو المرادُ من العلمِ، وهل يُرَادُ من العلمِ إلا العملُ به؟

قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «صيد الخاطر» (ص٣٧)**: «تأمَّلتُ المرادَ من الخلقِ؛ فإذا هو الذُّلُّ واعتقادُ التقصيرِ والعجزِ.

ومَثَّلتُ العلماءَ والزُّهَّادَ العاملين صِنْفَين: فأقمتُ في صَفِّ العلماءِ: مالكًا وسفيانَ وأبا حنيفةَ والشافعيَّ وأحمدَ، وفي صَفِّ العُبَّادِ مالكَ بن دينارٍ، ورابعةَ، ومعروفًا الكَرخِيَّ، وبشرَ بنَ الحارثِ.

فكلَّما جَدَّ العُبَّادُ في العبادةِ، وصاحَ بهم لسانُ الحالِ: عبادتُكم لا يتعداكم نفعُها وإنَّما يتعدىٰ نفعُ العلماءِ، وهم ورَثَةُ الأنبياءِ، وخُلَفَاءُ الله في الأرضِ[(٢)]، وهم الذين عليهم المعَوَّلُ، ولَـهُم الفَضلُ إذا أطرقوا وانكسروا وعلموا صِدقَ تلك الحالِ، وجاء مالكُ بن دينارٍ إلىٰ الْـحَسَنِ يتعلَّم منه، ويقول: الْـحَسنُ أستاذُنا.

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص١٤).

(٢) ليس الإنسانُ خليفةً لله في الأرض، والخليفةُ يخلُفُ عن غائبٍ، والنبي ﷺ يقول: «**اللهم أنت الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في الأهل والمال**».

وإذا رأىٰ العلماءُ أنَّ لهم بالعلمِ فضلًا، صاحَ لسانُ الحالِ بالعلماءِ: وهل المرادُ من العلمِ إلا العملُ؟ وقال أحمدُ بن حنبلٍ: وهل يرادُ بالعلمِ إلا ما وَصَلَ إليه معروفٌ؟

وصحَّ عن سفيانَ الثوريِّ أنَّه قال: «وَدِدتُ أنَّ يدي قُطعت ولم أكتبِ الْحَديثَ»[1].

وقالت أمُّ الدرداء لرجلٍ: هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا، قالت: فَلِمَ تستكثرُ من حُجَجِ الله عليك؟!

وقال أبو الدرداء: ويلٌ لمَن لم يعلم ولم يعمل مَرَّةً، وويلٌ لمن عَلِمَ ولم يعمل سبعين مرَّة.

وقال الفضيلُ: يُغفَرُ للجاهلِ سبعونَ ذنبًا، قبل أن يُغفرَ للعالِمِ ذنبٌ واحدٌ.

فما يبلغ من الكلِّ قولُهُ تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

وجاء سفيانُ إلىٰ رَابِعَةَ[2] فجلس بين يديها ينتفعُ بكلامِها، فدلَّ العلماءَ العلمُ علىٰ أنَّ المقصودَ منه العملُ به، وأنَّه آلةٌ فانكسروا واعترفوا بالتقصيرِ.

فَحَصَلَ الكلُّ علىٰ الاعترافِ والذُّلِّ، فاستخرَجَتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبودية باعترافهم، فذلك هو المقصودُ من التكليفِ» اهـ.

قلتُ: وعَلاقةُ العلمِ بالعملِ كعَلاقَةِ الروحِ بالجسدِ، عَلاقَةٌ شفيفةٌ لا تَحُدُّهَا

(١) يقولُهُ خشيةَ طلبِ الشهرةِ به والعلوِّ، وإلَّا فعلم الحديثِ من أشرفِ العلوم.

(٢) ترجمتها في: «وفيات الأعيان» (٣/ ٢١٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١)، وخبر سفيان في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١-٢٤٣).

معالـمُ ظاهرةٌ تدركُهَا الحواسُّ ويَقنَعُ بها الحسُّ، اللَّهمَّ إلا في ثمرتها، فإنَّ العلمَ إن عُمِلَ به زَكَا وأثمرَ، والعمل إذا كان علىٰ مقتضىٰ العلمِ كان مباركًا ذا أثرٍ.

ومن فاتَهُ العلمُ كان تائهًا في ظلماتِ حَيرَةٍ لا مَخلَصَ منها، ومن حَصَلَ له العلمُ ولـم يحصل له العملُ كان أشدَّ حيرةً وأَمعَنَ في ظلماتِ ليلٍ لا صُبحَ له ولا مَعدَىٰ عنه.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلُّ مَن فاتَهُ العلمُ تَخبَّطَ، فإن حَصَلَ له، وفَاتَهُ العملُ به كان أَشَدَّ تَخَبُّطًا»(١).

ولا نجاةَ من هذا كلِّه -بفضل الله ورحمتِهِ- إلا بإحكامِ العملِ علىٰ مقتضىٰ العلمِ، وإحكامِ العلمِ علىٰ نَهجِ الوحيين الشريفين: الكتابِ والسُّنَّةِ.

وقد كان السَّلَفُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يوصُونَ طَلَبَةَ الحديثِ بالتميُّزِ في أمورِهم كلِّها؛ باستعمالِ آثارِ النبيِّ ﷺ، وكانوا يستعينون علىٰ حفظِ الحديثِ بالعملِ به.

قال الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الجامع (١/ ١٤٢)**: «ينبغي لطالبِ الحديثِ أن يتميَّزَ في عامَّةِ أمورِهِ عن طرائقِ القومِ؛ باستعمالِ آثارِ النبيِّ ﷺ ما أمكنه، وتوظيفِ السُّنَنِ علىٰ نفسِهِ، فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]».

عن أبي أيوبَ سليمانَ بن إسحاقَ الجَلابِ: قال: قال لي إبراهيمُ الحَربيُّ: ينبغي للرجلِ إذا سَمِعَ شيئًا من آدابِ النبيِّ ﷺ أن يتمسَّكَ به.

وعن الحسَنِ قال: كان الرجلُ يطلبُ العلمَ، فلا يَلبَثُ أن يُرىٰ ذلك في تَخَشُّعِهِ

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٢٧٤).

وهَديِهِ ولسانِهِ وبصرِهِ ويدِهِ.

وعن ابن عُيَينَةَ قالَ: كان الشابُّ إذا وَقَعَ في الحديثِ احتَسَبَهُ أَهلُهُ.

قال أبو بكر -هو الخطيبُ البغداديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: يعني أنَّه كان يجتهد في العبادةِ اجتهادًا يقتطعُهُ عن أهلِهِ، فيحتسبونه عند ذلك.

وعن أبي عصمةَ عاصمِ بن عصامٍ البيهقي قال: بِتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبلٍ، فجاءَ بالماءِ فوضعَهُ، فلمَّا أصبحَ نَظَرَ إلىٰ الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله**!** رجلٌ يطلبُ العلمَ لا يكون له وِردٌ من الليلِ؟**!**

وعن أبي عمرو بن حمدان قال: سمعتُ أبي يقول: كنتُ في مجلسِ أبي عبد الله المروزيِّ، فحضرت صلاةُ الظهرِ، فَأَذَّنَ أبو عبد الله، فخرجتُ من المسجدِ، فقال: يا أبا جعفرٍ إلىٰ أين؟**!** قلتُ: أتطهَّرُ للصلاةِ، قال: كان ظنيِّ بك غيرَ هذا، يدخلُ عليك وقتُ الصلاةِ وأنت علىٰ غير طهارةٍ؟**!**

وعن قاسم بن إسماعيل بن عليٍّ قال: كنَّا ببابِ بشرِ بن الحارثِ، فخرج إلينا، فقلنا: يا أبا نصرٍ حَدِّثَنا، فقالَ: أَتُؤَدُّونَ زكاةَ الحديثِ؟ قال: قلتُ له: يا أبا نصرٍ، وللحديثِ زكاةٌ؟**!** قال: نعم، إذا سمعتم الحديثَ، فما كان في ذلك من عملٍ أو صلاةٍ أو تسبيحٍ استعملتموه.

وعن المروزي قال: قال لي أحمدُ: ما كتبتُ حديثًا عن النبيِّ ﷺ إلا وقد عَمِلتُ به، حتىٰ مرَّ بي الحديثُ أنَّ النبيﷺ احتجمَ وأعطىٰ أبا طَيبَةَ دينارًا، فأعطيتُ الحجَّامَ دينارًا حين احتجَمتُ».

وهذا الذي قال الإمامُ أحمدُ وشَرَحَ، وبيَّن وصَنَعَ، هو الفهمُ المستقيمُ لروحِ

الدينِ وجوهرِ الشريعةِ؛ لأنَّ الشّرعَ إنما طَلَبَ تَعَلُّمَ العلمِ وحضَّ عليه لأجل كونه وسيلةً للتعبُّدِ به لله تعالىٰ.

قال الشاطبيُّ -رحمه الله تعالىٰ-: «كلُّ علمٍ شرعيٍّ فَطَلَبُ الشارعِ له إنَّما يكون من حيث هو وسيلةٌ إلىٰ التعبُّدِ به لله تعالىٰ، لا من جهةٍ أخرىٰ، فإن ظَهَرَ فيه اعتبارُ جهةٍ أخرىٰ، فبالتَّبَعِ والقصدِ الثاني، لا بالقصدِ الأول، والدليلُ علىٰ ذلك أمورٌ:

أحدُها: أنَّ كلَّ علمٍ لا يفيدُ عملًا؛ فليس في الشرعِ ما يدلُّ علىٰ استحسانِهِ، ولو كان له غايةٌ أخرىٰ شرعيةٌ؛ لكان مُستَحسنًا شرعًا، ولو كان مُستَحسَنًا شرعًا، لبَحَثَ عنه الأوَّلون من الصحابةِ والتابعين، وذلك غير موجودٍ، فما يلزم عنه كذلك[1].

والثاني: أنَّ الشرعَ إنَّما جاءَ بالتعبُّدِ، وهو المقصودُ من بَعثَةِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ كقولِهِ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١].

وقوله تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:١-٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ

(١) لا يريدُ الشيخُ -إن شاء الله- ما استحدثه النَّاسُ من علومٍ تقتضيها حالُ العصرِ، كعلمِ الكيمياءِ والهندسةِ ومباحث الطبِّ، والحرارة والكهرباء وغيرها، فهذه داخلةٌ في المقاصد العامة للشريعةِ، وإنما يريد الشيخُ ما استحدثه الناسُ بعد الأوَّلين من علم الفلسفةِ النظريةِ المحضةِ، وعلم الكلامِ، ومباحث التصوفِ، وعلم الفلك من حيث التأثير لا من حيث التسيير والنظر في ملكوت السموات، وعليه فلا يصحُّ الاعتراضُ علىٰ الشيخِ هنا؛ لأنَّه تكلَّم علىٰ حسب معطيات عصره، ويجب أن نفهم كلامه في إطار زمانه، والله الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل.

رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]؛ أي: يُسوون به غيره في العبادةِ؛ فذمَّهم علىٰ ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٤٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف:٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

وما أشبه ذلك من الآياتِ التي لا تكادُ تُحصىٰ، كلُّها دالٌّ علىٰ أنَّ المقصودَ التعبُّدُ لله، وإنما أُتوا بأدلَّةِ التوحيدِ ليتوجَّهوا إلىٰ المعبودِ بحقٍّ وحده، سبحانه لا شريكَ له، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

ومثلُهُ سائرُ المواضعِ التي نصَّ فيها علىٰ كلمةِ التوحيدِ، لابُدَّ أن أُعقبت بطلبِ التعبُّدِ لله وحده، أو جُعِلَ مقدِّمَةً لَـهَا، بل أَدلَّةُ التوحيد هكذا جرىٰ مساقُ القرآنِ فيها: أَلَّا تُذكَرَ إلا كذلك؛ وهو واضحٌ في أنَّ التعبُّدَ لله هو المقصودُ من العلمِ، والآياتُ في هذا المعنىٰ لا تُـحصىٰ.

والثالثُ: ما جاءَ من الأدلَّةِ الدالَّةِ علىٰ أنَّ روحَ العلمِ هو العملُ، وإلا فالعلمُ عاريةٌ وغيرُ منتفعٍ به؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ [يوسف:٦٨].

قال قتادةُ: يعني لذو عملٍ بما علَّمناه.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر:٩].

وقالَ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة:٤٤].

ورُوي عن أبي جعفرٍ محمد بن عليٍّ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٩٤]. قال: قومٌ وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلىٰ غيره.

وقال سفيانُ الثوريُّ: إنَّما يُتَعَلَّمُ العلمُ لِيُتَّقَىٰ به الله، وإنَّما فُضِّلَ العلمُ علىٰ غيرِهِ، لأَنَّه يُتَّقَىٰ الله به.

وعن النبيِّ ﷺ؛ أنه قالَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا العَبدِ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسأَلَ عَن خَمسِ خِصَالٍ**»، وذكر فيها: «**وَعَن عِلمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيه؟**»[1].

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣-٢٤).

وعن أبي الدرداء: «إنَّما أخافُ أن يُقالَ لي يوم القيامةِ: أعَلِمتَ أم جهلت؟ فأقول: علمتُ فلا تبقىٰ آيةٌ من كتابِ الله آمرةٌ أو زاجرةٌ إلا جاءتني تسألني فريضتَها، فتسألني الآمرةُ: هل ائتمرت؟ والزاجرةُ: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمَعُ».

وحديث أبي هريرة في الثلاثةِ الذين هم أوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بهمُ النَّارُ يومَ القِيَامَةِ: قال فيه: «**وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرفَهَا، فقالَ: مَا عَمِلتَ فيهَا؟ قالَ: تَعَلَّمتُ فِيكَ العِلْمَ وعَلَّمتُهُ، وَقَرأتُ القُرآنَ، قالَ: كَذَبتَ، ولَكِن لِيُقَالَ: فُلانٌ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجهِهِ حَتَّىٰ أُلقِيَ فِي النَّارِ**».

وقال الحكماءُ: من حَجَبَ الله عنه العلمَ، عَذَّبَهُ به علىٰ الجهلِ، وأشدُّ منه عذابًا مَن أقبل عليه العلمُ فأدبر عنه، ومن أهدىٰ الله إليه علمًا فلم يعمل به.

وقال مُعاذُ بن جبلٍ: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجُرَكم الله بعلمِهِ حتىٰ تعملوا.

وكان رجلٌ يسألَ أبا الدرداء، فقال له: كلُّ ما تسأل عنه تعمل به؟ قال: لا، قال: فما تصنع بازديادِ حُجَّةِ الله عليك؟!

وقال الحسنُ: اعتبروا النَّاسَ بأعمالهم، ودَعُوا أقوالَهم، فإنَّ الله لـم يدَع قولًا إلا جَعَلَ عليه دليلًا من عملٍ يصدِّقُهُ أو يكذِّبُهُ، فإذا سمعتَ قولًا حسنًا فَرُوَيدًا بصاحبِهِ، فإن وافَقَ قوله عمله، فنعم ونَعْمَةُ عَينٍ.

وقال ابنُ مسعودٍ: إنَّ النَّاسَ أحسنوا القولَ كلُّهم، فَمن وافَقَ فعلُه قولَه، فذلك

الذي أصابَ حظَّه، ومَن خَالَفَ فعلُه قولَه، فإنَّما يُوَبِّخُ نفسَهُ.

وقال الثوريُّ: إنَّما يُطلبُ الحديثُ ليُتَّقَىٰ به الله ﷻ، فلذلك فُضِّلَ علىٰ غيرِهِ من العلومِ، ولولا ذلك كان كسائرِ الأشياءِ.

وذكر مالكٌ أنَّه بَلَغَهُ عن القاسمِ بن محمدٍ، قال: أدركتُ النَّاسَ وما يُعجبهم القولُ، إنَّما يُعجبهم العملُ.

والأدلَّةُ علىٰ هذا المعنىٰ أكثرُ من أن تُحصىٰ، وكلُّ ذلك يُحَقِّقُ أنَّ العلمَ وسيلةٌ من الوسائلِ، ليس مقصودًا لنفسهِ من حيث النظرُ الشرعيُّ، وإنَّما هو وسيلةٌ إلىٰ العملِ، وكلُّ ما وَرَدَ في فضلِ العلمِ فإنَّما هو ثابتٌ للعلمِ من جهةِ ما هو مكلَّفٌ بالعملِ به.

فلا يُقالُ: إنَّ العلمَ قد ثَبتَ في الشريعةِ فضلُهُ، وإنَّ منازلَ العلماءِ فوقَ منازل الشهداءِ، وإنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ مرتبةَ العلماءِ تَلي مرتبةَ الأنبياءِ، وإن كان كذلك، وكان الدليلُ الدالُّ علىٰ فضلِهِ مطلقًا لا مقيَّدًا؛ فكيف يُنكَرُ أنَّه فضيلةٌ مقصودةٌ لا وسيلةٌ؟ هذا وإن كان وسيلةً من وجهٍ؛ فهو مقصودٌ لنفسهِ أيضًا، كالإيمانِ؛ فإنَّه شرطٌ في صحَّةِ العباداتِ ووسيلةٌ إلىٰ قَبولها، ومع ذلك؛ فهو مقصودٌ لنفسهِ.

لأنَّا نقولُ: لـم يثبت فضلُهُ مطلقًا بل من حيث التوسُّلُ به إلىٰ العملِ، بدليلِ ما تقدَّم ذكرهُ آنفًا، وإلا تعارضت الأدلَّةُ، وتناقضت الآياتُ والأخبارُ، وأقوالُ السلفِ الأخيارِ، فلابُدَّ من الجمعِ بينهما، وما ذُكر آنفًا شرحٌ لما ذُكر في فَضلِ العلمِ والعلماءِ، وأمَّا الإيمانُ؛ فإنه عملٌ من أعمالِ القلوبِ، وهو التصديقُ، وهو ناشئٌ عن العلمِ، والأعمالُ قد يكون بعضُها وسيلةً إلىٰ بعضٍ، وإن صَحَّ أن تكونَ مقصودةً في أنفسِها، أما العلمُ فإنَّه وسيلةٌ، وأعلىٰ ذلك العلمُ بالله، ولا تصحُّ به فضيلةٌ لصاحبِهِ حتىٰ

يصدِّقَ بمقتضاه، وهو الإيمانُ بالله.

فإن قيل: هذا متناقضٌ؛ فإنَّه لا يصحُّ العلمُ بالله مع التكذيب به.

قيل: بل قد يحصل العلمُ مع التكذيبِ، فإنَّ الله قال في قومٍ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠].

فأثبت لهم المعرفةَ بالنبيِّ ﷺ ثم بيَّن أنهم لا يؤمنون، وذلك ممَّا يوضِّح أنَّ الإيمانَ غيرُ العلمِ، كما أنَّ الجهلَ مغايرٌ للكفرِ.

نعم، قد يكون العلمُ فضيلةً، وإن لم يقع العملُ به على الجملةِ، كالعلمِ بفروعِ الشريعةِ والعَوارضِ الطارئةِ على التكليفِ، إذا فُرِضَ أنَّها لم تقع في الخارجِ، فإنَّ العلمَ بها حَسَنٌ، وصاحبُ العلمِ مُثَابٌ عليه وبالغٌ مبالغَ العلماءِ، لكن من جهةِ ما هو مَظِنَّةُ الانتفاعِ عند وجودِ مَحَلِّهِ، ولم يخرجه ذلك عن كونِهِ وسيلةً، كما أنَّ في تحصيلِ الطهارةِ للصلاةِ فضيلةً، وإن لم يأتِ وقتُ الصلاةِ بعدُ، أو جاء ولم يمكنه أداؤُها لِعُذرٍ، فلو فُرِضَ أن تَطَهَّرَ على عزيمةِ ألا يُصَلِّيَ؛ لم يصحَّ له ثوابُ الطهارةِ، فكذلك إذا عَلِمَ على ألا يعمَلَ؛ لم ينفعه علمُهُ، وقد وجدنا وسمعنا أنَّ كثيرًا من اليهود والنصارى يعرفونَ دينَ الإسلامِ، ويعلمونَ كثيرًا من أصولِهِ وفروعِهِ، ولم يكن ذلك نافعًا لهم مع البقاء على الكفر باتفاقِ أهلِ الإسلامِ.

فالحاصلُ: أنَّ كلَّ علمٍ شرعيٍّ ليس بمطلوبٍ إلا من جهةِ ما يُتَوَسَّلُ به إليه، وهو العملُ»[١].

عَالِمُ السُّوءِ، وَمَثَلُهُ:

العملُ إذا انسَلَخَ عن العلمِ أدخَلَ حاملَهُ في دائرةِ عالـمِ السوءِ، وعَلِمَ الله إنَّها لدائرةٌ قبيحةٌ لا تضمُّ إلا مَن رَقَّ دينُهُ وغَلُظَ حِجَابهُ وبَاعَ للشيطانِ نَفسَهُ.

قال الشاطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الموافقات**» (١/ ١٠٣): «إنَّ علماءَ السوءِ هُمُ الذينَ لا يعملون بما يعلمون».

وعلماءُ السُّوءِ من أخطرِ الأخطار علىٰ النَّاسِ والدينِ جميعًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعلماءُ السُّوءِ جلسوا علىٰ بابِ الجَنَّةِ يَدعُونَ إليها النَّاسَ بأقوالِهِم، ويدعونهم إلىٰ النَّارِ بأفعالهم، فكلَّما قالت أقوالُهم للنَّاسِ: هلمُّوا، قالت أفعالُهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دَعَوا إليه حقًّا كانوا أوَّلَ المستجيبين له، فهم في الصورةِ أَدِلَّاءُ، وفي الحقيقةِ قُطَّاعُ الطريقِ»[٢].

وقد ضَرَبَ الله تعالىٰ لعالِـمِ السُّوءِ في كتابِهِ مَثَلًا شنيعًا، قَبيحَ الطَّلْعَةِ، كَريهَ المنظَرِ، كَالِحَ الوجهِ؛ فما مَثَلُ عالِـمِ السُّوءِ في كتابِ الله تعالىٰ إلا كَمَثَلِ الكلبِ في لَهَثَانِهِ، كذا قَضَىٰ رَبُّنَا وقَدَّرَ.

قالَ تعالىٰ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

(١) «الموافقات» للشاطبي، تحقيق مشهور حسن سلمان (١/ ٧٣).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص٨١).

فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا مَثَلُ عالِـمِ السُّوءِ الذي يعملُ بخلافِ علمِهِ، وتأمَّل ما تضمَّنته هذه الآيةُ من ذَمِّهِ، وذلك من وجوه:

أحدُها: أنَّه ضَلَّ بعد العلمِ، واختارَ الكفرَ علىٰ الإيمانِ عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنَّه فَارَقَ الإيمانَ مفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا، فإنَّه انسلخَ من الآياتِ بالجملةِ كما تنسلخُ الحيَّةُ من قِشرِهَا، ولو بقي معه منها شيءٌ لـم ينسلخ منها.

وثالثُهَا: أنَّ الشيطانَ أدركه ولَـحِقَهُ بحيث ظفرَ به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولـم يقُل: تَبِعَهُ، فإنَّ في معنىٰ أتبَعَهُ: أدركه ولحقه، وهو أبلغُ مِنْ تَبِعَهُ لفظًا ومعنًىٰ.

ورابُعها: أنَّه غَوَىٰ بعدَ الرُّشدِ، والغَيُّ: الضلالُ في العلمِ والقَصدِ، وهو أَخَصُّ بفسادِ القَصدِ والعملِ، كما أنَّ الضلالَ أَخَصُّ بفسادِ العلمِ والاعتقادِ، إذا أُفرِدَ أحدُهما دَخَلَ فيه الآخَرُ، وإن اقترنا فالفَرقُ ما ذُكِر.

وخامسُهَا: أنَّه سبحانه لـم يَشَأ أن يرفعَهُ بالعلمِ فكان سَبَبَ هلاكِهِ؛ لأنَّه لـم يُرفع به فصار وبَالًا عليه، فلو لـم يكن عالِـمًا كان خيرًا له وأَخَفَّ لعذابِهِ.

وسادسُها: أنَّه سبحانه أخبرَ عن خِسَّةِ همَّتِهِ، وأنَّه اختارَ الأسفلَ الأدنىٰ علىٰ الأشرفِ الأعلىٰ.

وسابِعُها: أنَّ اختيارَهُ للأدنىٰ لـم يكن عن خاطرٍ وحديثِ نفسٍ، ولكنَّه كان عن إخلادٍ إلىٰ الأرضِ، ومَيلٍ بكليتِهِ إلىٰ ما هناك، وأصلُ الإخلادِ: اللُّزُومُ علىٰ

الدوامِ، كأنَّه قيلَ: لَزِمَ الميلَ إلىٰ الأرضِ، ومن هذا يُقَالُ: أخلَدَ فلانٌ بالمكانِ إذا لَزِمَ الإقامةَ به.

قال مالكُ بنُ نُوَيرَةَ:

بِأبنَاءِ حَيٍّ مِن قَبَائِلِ مَالِكٍ وَعَمرِو بن يَربُوعٍ أقَامُوا فأخلَدُوا

وعَبَّرَ عن ميلِهِ إلىٰ الدنيا بإخلادهِ إلىٰ الأرضِ، لأنَّ الدنيا هي الأرضُ وما فيها وما يُستخرجُ منها من الزينةِ والمتاعِ.

وثامنُهَا: أنَّه رَغبَ عن هُدَاهُ واتَّبَعَ هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعُهُ.

وتاسعُهَا: أنَّه شَبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخَسُّ الحيواناتِ همَّةً، وأسقطُها نَفسًا، وأبخلُها، وأشدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّي كَلْبًا.

وعاشرُها: أنَّه شَبَّهَ لَهثَه علىٰ الدنيا، وعدمَ صَبرِهِ عنها، وجَزعَهُ لفقدِها، وحرصَه علىٰ تحصيلها، بلهثِ الكلبِ في حالتي تركهِ والْحَمْلِ عليه بالطَّرْدِ، وهكذا هذا إن تُرِكَ فهو لَهْثَانُ علىٰ الدنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك، فاللَّهْثُ لا يفارقُهُ في كلِّ حالٍ كَلَهْثِ الكلبِ.

قال ابنُ قُتَيبَةَ: كلُّ شيءٍ يلهثُ فإنَّما يلهثُ من إعياءٍ أو عطشٍ إلا الكلبَ[1]، فإنَّه يَلْهَثُ في حالِ الكَلالِ، وحالِ الراحةِ، وحالِ الرِّيِّ، وحالِ العطشِ؛ فضربهُ الله

(١) إنَّ جلودَ الكلابِ لا تحوي غُدَدًا عَرَقِيَّةً، والغددُ العرقيةُ طريقٌ من طرقِ الإخراجِ، ولأجلِ عدم وجودِها في جلود الكلاب، تستعيضُ باللهثانِ كطريقٍ من طرقِ الإخراج، ولذلك يُرىٰ الكلب في حالاته كلِّهَا لاهِثًا، فهذا سَبَبُهُ والله أعلم، فسبحان مَن القرآنُ العظيمُ كلامُهُ، والخلق كلُّهُ فعلهُ، ولا خلافَ بين قولِهِ وفعلِهِ، وهو اللطيفُ الخبير.

مثلًا لهذا الكافرِ، فقال: إن وَعَظتهُ فهو ضالٌّ، وإن تركَتهُ فهو ضالٌّ، كالكلبِ إن طردتَهُ لَهَثَ، وإن تركتَهُ علىٰ حالِه لَهَثَ، وهذا التمثيلُ لـم يقع بكلِّ كلبٍ، وإنَّما وَقَعَ بالكلبِ اللاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكون وأشنعُهُ»[1].

فإذا عَلِمَ العالِـمُ أمرَ الله ونهيَهُ، وأمرَ رسولِهِ ﷺ ونهيَهُ، فليس له أن يَنسَلِخَ ممَّا عَلِمَ، وينكص علىٰ عقبيه، وإلا فهو عالِـمُ سُوءٍ.

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ عند هذا الموضعِ من سُورةِ الأعرافِ في تفسيرِهِ: «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٧٢): «وفي هذه الآياتِ: الترغيبُ في العملِ بالعلمِ، وأن ذلك رفعةٌ من الله لصاحبِهِ، وعصمةٌ من الشيطانِ، والترهيبُ من عدمِ العملِ بالعلمِ، وأنَّه نزولٌ إلىٰ أسفلِ سافلينَ، وتسليطٌ للشيطانِ عليه».

حَالُ الْمُخَالَفَةِ بَينَ العِلمِ والعَمَلِ:

حالُ المخالفةِ بين العلمِ والعملِ حالُ معصيةٍ، وحالُ جهلٍ، وقد أجمعَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ أنَّه لا يَعصِي الله إلا جاهلٌ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فأصلُ ما يُوقِعُ النَّاسَ في السيئاتِ: الجهلُ، وعدمُ العلمِ بكونها تضرُّهم ضَرَرًا راجحًا، أو ظنُّ أنَّها تنفعهم نفعًا راجحًا».

ولهذا قال الصحابةُ رضي الله عنهم: كلُّ مَن عَصَىٰ الله فهو جاهلٌ، وفَسَّروا بذلك قولَه تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ [النساء:١٧].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٣٥).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

ولهذا يُسَمَّىٰ حالُ فعلِ السيئاتِ «جاهلية» فإنَّه يصاحبُها حالٌ من حالِ الجاهليةِ.

قال أبو العالية: سألتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ عن هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، فقالوا: كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ، ومن تاب قبيلَ الموتِ فقد تابَ من قريبٍ.

وعن قَتَادَةَ قال: أجمَعَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ علىٰ أنَّ كلَّ مَن عَصَىٰ ربَّه فهو في جهالةٍ، عمدًا كان أو لـم يكن، وكُلُّ مَن عَصَىٰ الله فهو جاهلٌ، وكذلك قال التابعون ومَن بَعدَهم.

قال مجاهدٌ: مَن عَمِلَ ذنبًا -من شَيخٍ أو شابٍّ- فهو بجهالة.

وقال: مَن عَصَىٰ ربَّه فهو جاهلٌ، حتىٰ ينزع عن معصيتهِ.

وقال أيضًا: هو إعطاءُ الجهلِ العَمْدَ.

وقال مجاهدٌ أيضًا: مَن عَمِلَ سوءًا خَطَأً، أو إثمًا عمدًا، فهو جاهلٌ، حتىٰ ينزِعَ منه. رواهُنَّ ابنُ أبي حاتمٍ.

ثمَّ قال: رُوي عن قتادةِ، وعمروِ بن مُرَّةَ، والثوريِّ: ونحو ذلك خطأً أو عمدًا.

ورُوي عن مجاهدٍ، والضَّحَّاكِ، قالا: ليس من جهالتِهِ ألا يعلمَ حلالًا ولا حرامًا،

ولكن من جهالتِهِ حين دَخَلَ فيه»[١].

فحالُ المخالفةِ معصيةٌ وجهالةٌ كما رأيتَ، وليست الجهالةُ التي هي ضِدُّ العلمِ فإنَّ العلمَ بالتحريمِ شرطٌ لكون المعصيةِ معصيةً، وإنَّما الجهالةُ للوقوعِ في الذَّنبِ والولوجِ في المعصيةِ.

قال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «توبةُ الله علىٰ عبادِهِ نوعان: توفيقٌ منه للتوبةِ، وقبولٌ لها بعد وجودِها من العبدِ.

فأخبرَ هنا أنَّ التوبةَ المستحقَّةَ علىٰ الله، حقٌّ أحقَّه علىٰ نفسِهِ، كرمًا منه وجُودًا، لمن عمل السُّوءَ، أي: المعاصي بجَهَالَةٍ، أي: جهالةٍ منه لعاقبتِهَا، وإيجابِهَا لسخطِ الله وعقابِهِ، وجهلٍ منه بما تَؤولُ إليه من نقصِ الإيمانِ أو إعدامِهِ.

فكلُّ عاصٍ لله، فهو جاهلٌ بهذا الاعتبارِ، وإن كان عالِمًا بالتحريمِ، بل العلمُ بالتحريمِ شرطٌ لكونها معصيةً، معاقَبًا عليها»[٢].

قال أبو جعفر بن جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني بقولِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، ما التوبةُ علىٰ الله لأحدٍ من خَلقِهِ إلا للذين يعملون السُّوءَ من المؤمنين بجهالةٍ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾، يقول: ما الله براجعٍ إلىٰ أحدٍ من خلقِهِ إلىٰ ما يحبُّه من العفوِ عنه والصفحِ عن ذنوبِهِ التي سَلَفَت منه، إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالةً منهم، وهم بربِّهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعةَ الله ويتوبون منه إلىٰ ما أمرهم الله به، من النَّدمِ عليه والاستغفارِ وتَركِ العَوْدِ

(١) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية (ص٦٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص١٣٧).

إلىٰ مثلِهِ من قَبلِ نزولِ الموتِ، وذلك هو (القريبُ) الذي ذَكَرَهُ الله -تعالىٰ ذِكرُهُ-، فقال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وبنحو ما قلنا في تأويل ذلك قال أهلُ التأويلِ، غير أنَّهم اختلفوا في معنىٰ قولِهِ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾.

فقال بعضُهم في ذلك بنحو ما قلنا فيه، وذهبَ إلىٰ أنَّ عَمَلَهُ السُّوءَ، هو (الجهَالَةُ) التي عَنَاهَا.

عن أبي العاليةِ، أنَّه كان يُحَدِّثُ: أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ كانوا يقولون: كلُّ ذَنبٍ أصابَهُ عَبدٌ فهو بجهالةٍ.

وعن قتادةَ قولُهُ: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: اجتمعَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عُصيَ به فهو (جَهَالَةٌ) عمدًا كان أو غيره.

وعن مجاهدٍ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال: كلُّ مَن عَمِلَ بمعصيةِ الله، فذاك منه بجهلٍ حتىٰ يرجعَ عنه.

وعن السُّدِّيِّ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، ما دام يعصي الله فهو جاهلٌ.

وعن ابنِ زيدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، قال: «الجهالة» كلُّ امرئٍ عَمِلَ شيئًا من معاصي الله فهو جاهلٌ أبدًا حتىٰ يَنزِعَ عنها، وقرأ: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩]، وقَرَأ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، قال: مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ حتىٰ يَنزِعَ عن معصيتِهِ.

وقال آخرونَ: معنىٰ قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، يعملونَ ذلكَ علىٰ عَمدٍ منهم له.

عن مجاهدٍ: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: الجهالةُ: العَمدُ.

وعن الضَّحَّاكِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: الجَهَالةُ: العَمدُ.

وقال آخرون: معنىٰ ذلك: إنَّما التوبةُ علىٰ الله للذين يعملون السُّوءَ في الدنيا.

عن عِكْرِمَة: قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: الدنيا كلُّها جَهَالَةٌ.

قال أبو جعفرٍ -هو ابنُ جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وأَولَىٰ هذه الأقوالِ بتأويلِ الآيةِ، قَولُ مَن قال: تأويلُها: إنَّما التوبةُ علىٰ الله للذين يعملون السُّوءَ، وعملُهم السُّوءَ هو الجهالَةُ التي جهلوها، عامدين كانوا للإثمِ، أو جاهلين بما أَعَدَّ الله لأهلِهَا»[1].

فارتكابُ المعصيةِ، ومخالفةُ مقتضىٰ العلمِ، يتنافىٰ مع حقيقةِ العلمِ، ويُوقِعُ في الجهالةِ التي هي ضِدُّ العلمِ، والتي يفرُّ منها كلُّ عالـمٍ، وهذا هو ما يُسَمَّىٰ بـ (جَهلِ العلمِ)، وقد عقدتُ له بفضلِ الله ورحمته، وحولِهِ وقوته بابًا خاصًّا به في كتابِ «ذَمُّ الجهلِ»، إذ كان هذا اللونُ من الجهلِ أخطرَ شيءٍ علىٰ العلمِ، بل هو آفتُهُ التي تصرفُ النَّاسَ عنه، وتُسيءُ ظنونَهم به.

(١) «تفسير الطبري»، تحقيق محمود محمد شاكر (٨/ ٨٨).

ومَن خَالَفَ بين علمِهِ وعملِهِ، فقد أشبَهَ اليهودَ مشابهةً تزيدُ وتنقصُ علىٰ قَدرِ ما خَالَفَ، كما أنَّ مَن عَمِلَ بلا عِلمٍ فقد أشبَهَ النصارىٰ علىٰ قَدرِ ما فيه من ذلك.

«جماعُ ذلك أنَّ كُفْرَ اليَهودِ أصلُهُ: من جهةِ عدمِ العملِ بعلمهم، فهم يعلمون الحقَّ، ولا يتَّبعونه قولًا، أو عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا، وكُفْرُ النَّصارىٰ من جهةِ عملِهم بلا علمٍ، فهم يجتهدون في أصنافِ العباداتِ بلا شريعةٍ من الله، ويقولون علىٰ الله ما لا يعلمون.

ولهذا كان السَّلَفُ، كسفيان بن عُيينةَ وغيرِهِ يقولون: مَن فَسَدَ من علمائنَا ففيه شَبَهٌ من اليهودِ، ومَن فَسَدَ من عُبَّادِنا ففيه شَبَهٌ من النَّصارىٰ»(١).

ومشابهةُ الفاسدِ من العلماءِ لليهودِ هي من جهةِ كونِهِ غيرَ عاملٍ بعلمِهِ، فكذلك اليهودُ، فإنَّه قد حُمِّلوا التوراةَ فلم يحملوها، وأوصاهم الله تعالىٰ أن يأخذوا ما آتاهم بقوةٍ فلم يأخذوا به أصلًا لذلك شبَّههم الله بالحمارِ يحملُ الأسفارَ علىٰ ظهرِهِ، ولا علمَ له بالذي يحملُهُ، ولا استفادةَ له من الذي يحملُهُ.

قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قاسَ سبحانه من حمَّله كتابَه ليؤمنَ به ويتدبَّره ويعملَ به ويدعوَ إليه، ثمَّ خالف ذلك، ولـم يحمله إلا علىٰ ظَهرِ قلبٍ، فقراءتُهُ بغير تدبُّرٍ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي (ص٥).

ولا تفهُّم ولا اتِّباعٍ له، ولا تَحكيمٍ له، وعملٍ بموجبِهِ - كحمارٍ علىٰ ظهرِهِ زاملَةُ أسفارٍ، لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملُهُ علىٰ ظهرِهِ ليس إلا، فحظُّه من كتابِ الله كحظِّ هذا الحمارِ من الكتبِ التي علىٰ ظهرِهِ.

فهذا المثَلُ، وإن كان قد ضُرِبَ لليهودِ، فهو متناوِلٌ من حيث المعنىٰ لمن حَمَلَ القرآنَ، فتركَ العملَ به، ولم يُؤدِّ حقَّه، ولم يَرْعَهُ حَقَّ رعايتِهِ»[1].

وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالىٰ ذامًّا اليهودَ الذين أُعطوا التوراةَ وحُمِّلُوها للعملِ بها، ثمَّ لم يعملوا بها: مثلُهم في ذلك كمثلِ الحمارِ يحملُ أسفارًا؛ أي: كمثلِ الحمارِ إذا حَمَلَ كُتُبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حَملًا حِسِّيًا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتابَ الذي أُوتوه، حفظوه لفظًا ولم يتفهَّموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أَوَّلوه وحرَّفُوه، وبدَّلُوه، فهم أسوأ حالًا من الحميرِ؛ لأنَّ الحمارَ لا فَهْمَ له، وهؤلاء لهم فهومٌ لم يستعملوها، ولهذا قال تعالىٰ في الآيةِ الأخرىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[2].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضَرَبَ مَثَلًا لليهودِ لَـمَّا تركوا العملَ بالتوراةِ ولم يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، أي: كُلِّفُوا العملَ بها؛ عن ابن عباسٍ.

وعن الْجُرجَانيِّ: هو من الْحَمَالَةِ، بمعنىٰ الكَفَالَةِ، أي: ضَمِنُوا أحكامَ التوراةِ،

---

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ١٦٥).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٣٦٤).

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾، وهي: جمعُ سِفْرٍ، وهو الكتابُ الكبيرُ؛ لأنه يُسفِرُ عن المعنىٰ إذا قُرِئَ.

وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالىٰ لمن حَمَلَ الكتابَ أن يتعلَّمَ معانيَهُ ويعلمَ ما فيه؛ لئلَا يلحقَهُ من الذَّمِّ ما لَحقَ هؤلاء، قال الشاعرُ:

زَوَامِـلُ للأَسـفَارِ لا عِلـمَ عِـندَهُم بِجَـيِّدِهَا إلا كَعِلـمِ الأبَاعِـرِ

لَعَمـرُكَ مَـا يَـدرِي البَعِـيرُ إذَا غَـدَا بِأَوْسَـاقِهِ[1] أَو رَاحَ مَـا فِـي الغَرَائـرِ

﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾، أي: لم يعملوا بها، شبَّههم والتوارةُ في أيديهم وهم لا يعملون بها -بالحمارِ يحملُ كُتُبًا وليس له إلا ثِقْلُ الحِملِ من غير فائدة»[2].

قلتُ: وقد ضَرَبَ الله ﷻ مَثَلَ عالِمِ السُّوءِ -كما مرَّ- في سورةِ الأعرافِ، فكانَ مَثَلًا رهيبًا قاسيًا علىٰ مَن كانَ له قلبٌ أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيدٌ؛ حَذَرًا من الوقوعِ فيه أو الدخولِ في دائرتِهِ، إذ كان مَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ اللاَّهِثِ الذي لا ينفكُّ عن اللَّهَثَانِ أبدًا.

وهنا مَثَلُ العالِمِ الذي لا يعملُ بعلمِهِ، كالحمارِ يحملُ أسفارَ العلمِ علىٰ ظهرِهِ، ما حَصَّلَ منها علمًا، وما أورثته تفكُّرًا، وما أفادتهُ عقلًا.

﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢].

قال تعالىٰ لنبيِّه يحيىٰ ؈: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم:١٢].

(١) **الأوساقُ**: جمعُ وَسْقٍ، وهو حِملُ البعيرِ.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٩١).

قال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمرَ الله يحيىٰ أن يأخذ الكتابَ بقوَّةٍ؛ أي: بجِدٍّ واجتهادٍ، وذلك بالاجتهادِ في حفظِ ألفاظِهِ، وفَهمِ معانيه، والعملِ بأوامرِهِ ونواهيه، هذا تمامُ أخذِ الكتابِ بقوةٍ، فامتثَلَ أَمْرَ ربِّهِ وأقبلَ علىٰ الكتابِ، فحفظَهُ وفهمَهُ، وجَعَلَ الله فيه من الذكاءِ والفطنَةِ، ما لا يُوجد في غيرِهِ، ولهذا قالَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾»[1].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةُ بلا خلافٍ، و﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ واجتهادٍ؛ قاله مجاهدٌ، وقيل: العلمُ به، والحفظُ له، والعملُ به، وهو الالتزامُ لأوامرِهِ، والكفُّ عن نواهيه؛ قاله زيدُ بن أسلمَ»[2].

وقد أَخَذَ الله الميثاقَ علىٰ اليهودِ من قبلُ بالإيمانِ به، واتِّبَاعِ رُسُلِهِ، وأمرهم تعالىٰ أن يأخذوا ما آتاهم بقوةٍ؛ أي: بطاعةٍ وعملٍ بما فيه، فقال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

قال في «عُمدَة التَّفسيرِ» (١/ ١٦١): «يقولُ تعالىٰ مذكِّرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهودِ والمواثيقِ بالإيمانِ به وحده لا شريكَ له، واتباعِ رُسُلِهِ، وأخبَرَ تعالىٰ أنَّه لـمَّا أخذ عليهم الميثاقَ رَفَعَ الجَبَلَ علىٰ رءوسِهم ليقرُّوا بما عُوهدوا عليه، ويأخذوه بقوةٍ وحزمٍ وامتثالٍ.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤٤٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٩٢).

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٧١]، فـ «الطور»، هو الجبلُ، كما فُسِّرَ به في الأعرافِ، ونصَّ علىٰ ذلك ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ، وهذا ظاهرٌ.

وقال الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾، يعني: التوراةَ.

وقولُهُ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: طاعةٍ، وعملٍ بما فيه.

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا بِهِ».

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، حين امتنعوا من قبول ما في التوراةِ، فألزمهم الله العملَ، ونَتَقَ فوقَ رءوسهم الجبلَ فصار فوقهم: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

وقيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجدٍّ واجتهادٍ، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، دراسةً ومباحَثةً واتصافًا بالعملِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتُم ذلك»[1].

ولذلك كان السَّلَفُ رضي الله عنهم يعتبرون النَّاسَ بأعمالهم لا بأقوالهم، وكلُّ مَن خَالَفَ فعلُهُ قولَه، فلا اعتبارَ له عندهم.

قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعتبروا النَّاسَ بأعمالِهم، ودعُوا أقوالَهم، فإنَّ الله لـم يَدَع قولًا إلا جَعَلَ عليه دليلًا من عملٍ يُصَدِّقُهُ أو يُكَذِّبُهُ، فإذا سمعتَ قولًا حسنًا فَرُويدًا بصاحِبِهِ، فإن وَافَقَ قولٌ عملًا فنعم ونَعْمَةُ عَينٍ، آخِهِ، وأَحبِبهُ، وإن خَالَفَ قولٌ عملًا فماذا يَشْبَهُ عليك منه؟! أَمَّاذا يَـخفَىٰ عليك منه؟! إيَّاكَ وإيَّاه لا يَـخدَعَنْكَ كما خُدِعَ ابنُ آدَمَ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٧١).

إنَّ لكَ قولًا وعملًا، فعملُكَ أحقُّ بك مِن قَولِكَ، وإنَّ لك سريرةً وعلانيةً، فسريرتُكَ أحقُّ بكَ من علانيتكَ، وإنَّ لك عاجلةً وعاقبةً، فعاقبتُك أحقُّ مِن عاجلتكَ.

وعن قيسِ بن رافعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: اجتمعَ ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ عند ابن عباسٍ رضي الله عنهما، فتذاكروا الخيرَ فَرَقُّوا، وواقدُ بن الحارثِ ساكتٌ، فقالوا: يا أبا الحارثِ ألا تتكلَّم؟ قال: قد تكلَّمتُم وكفيتُم، قالوا: تكلَّم فما أنتَ بأصغرِنا سِنًّا، فقال: أسمَعُ القولَ، فالقولُ قولُ خائفٍ، وأنظرُ الفعلَ، فالفعلُ فِعلُ آمِنٍ.

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: إنَّ النَّاسَ قد أحسنوا القولَ كلُّهم، فَمَن وَافَقَ قولُهُ فِعلَهُ فذلك الذي أصابَ حظَّه، ومَن خَالَفَ قولُهُ عملَهُ، فإنَّما يوبِّخُ نفسَهُ»[1].

العِلمُ بَينَ الصُّورَةِ والحقِيقَةِ:

لكلِّ شيءٍ اسمٌ وصورةٌ وحقيقةٌ، وأهمُّ ذلك وأجَلُّه وأعظَمُهُ حقيقةُ الشيءِ وجوهرُهُ.

ولا يُغني الاسمُ وحده شيئًا دون الصورةِ والحقيقةِ، ولا تغني الصورةُ شيئًا أيضًا دون الحقيقةِ والجوهرِ، وأمَّا حقيقةُ الشيءِ فتدُلُّ عَلَىٰ اسمِهِ وصورتِهِ، وهي لُبُّ اللُّبَابِ، وأصلُ وجودِ الشيءِ وكينونتِهِ.

ولو أنَّ جائعًا أخذ يُرَدِّدُ إلىٰ يوم يُصعقون كلمةَ: «خُبْزٌ» ما أغْنَتْ عنه من الجوعِ شيئًا، ولا سَدَّتْ له جَوعَةً، ولا رَدَّت عنه مَسغَبَةً، بل لزادته جوعًا بما يَبذُلُ من جَهدٍ، وما يستدعيه اللفظُ من خيالاتٍ لا يملك منها شيئًا.

(١) كتاب: «الصمت وآداب اللسان» لابن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف (ص٥٦٥).

ولو أنَّه صَوَّرَ في قرطاسٍ صورَة رغيفٍ، وأخذَ يتأمَّلُه مُقْبِلًا ومُدبِرًا، وقائمًا وقاعدًا، ما زاده ذلك إلا جوعًا، ومَسْغَبَةً.

ولكنَّه لو وَقَعَ من حقيقةِ الخبز علىٰ كِسرَةٍ يابسةٍ، لكانت أجدىٰ في رَدِّ غائلةِ الجوعِ وكَسرِ حِدَّتِهِ.

ولو أنَّ رجلًا ترتعُ الْـجِرْذَانُ في بيتِهِ وتمرحُ في مسكنِهِ، أخذ يردِّدُ كلمةَ: «قِطٌّ» ما شاء الله أن يردِّدَ، ما زادت الفئرانُ علىٰ سماعِها إلا مرحًا ونشاطًا.

ولو أنَّه صوَّر صورةَ قِطٍّ في قرطاسٍ، بل صورةَ أسدٍ[1]، ثمَّ علَّقَها هنا وهناك، وألقاها في الزوايا، لوجدت فيها الفئرانُ مادةَ غذاءٍ، وسببَ بقاءٍ.

ولكن لو أنَّه أتىٰ بقطٍّ تعيسٍ بئيسٍ، مهزولٍ أعجفَ، فأخَذَ يموءُ في الأرجاءِ من الضُّرِّ والألـمِ، والحزنِ والكمدِ، لوقفت الجرذانُ عند حدودِ الأدبِ، إذ رأت الحقيقةَ شاخصةً، والذاتَ باديةً.

وعلىٰ مِثل هذا يُقَاسُ «العلمُ» مع فوارقِ الرتبةِ واختلافات المرتبةِ، ومَن ظَنَّ أنَّ العلمَ حَشوُ الرأسِ بكلامٍ لا حقيقةَ له في خارجِ النفسِ فقد أَبعَدَ النُّجْعَةَ[2]، وإنَّما ينبغي أن تتمَّ المطابقةُ بين الثابتِ في النَّفسِ والحقيقةِ ذاتِها.

«العلمُ نَقلُ صورةِ المعلومِ من الخارجِ، وإثباتُها في النفسِ.

والعملُ نَقلُ صورةٍ علمِيَّةٍ وإثباتُها في الخارجِ.

(١) تصويرُ ذواتِ الأوراحِ حرامٌ كما هو معلومٌ.

(٢) **النُّجْعَةُ**: طلبُ الكلأِ ومساقطِ الغيثِ.

فإن كان الثابتُ في النفسِ مطابقًا للحقيقةِ في نفسِها فهو علمٌ صحيحٌ.

وكثيرًا ما يثبُتُ ويتراءىٰ في النفسِ صورٌ ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ، فيظنُّها الذي قد أثبتَهَا في نفسِهِ علمًا، وإنَّما هي مُقَدَّرَةٌ لا حقيقةَ لها، وأكثرُ علومِ النَّاسِ من هذا البابِ، وما كان منها مُطَابِقًا للحقيقةِ في الخارجِ فهو نوعان:

نوعٌ تكملُ النفسُ بإدراكِهِ وهو العلمُ بالله، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، وكُتُبِهِ، وأمرِهِ، ونهيِهِ.

ونوعٌ لا يحصلُ للنفسِ به كمالٌ، وهو كلُّ علمٍ لا يضرُّ الجهلُ به، فإنَّه لا ينفعُ العلمُ به، وكان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، وهذا حالُ أكثرِ العلومِ الصحيحةِ المطابقةِ التي لا يَضُرُّ الجهلُ بها شيئًا؛ كالعلمِ بالفلكِ ودقائقِهِ ودرجاتِهِ، وعددِ الكواكبِ ومقاديرِها، والعلم بعددِ الجبالِ وألوانِها ومساحاتِهَا، ونحو ذلك[1]، فَشَرَفُ العلمِ بحسبِ شَرَفِ معلومِهِ وشِدَّةِ الحاجةِ إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك.

وأمَّا العلمُ فآفتُهُ عدمُ مطابقتِهِ لمرادِ الله الدينيِّ الذي يحبُّه الله ويرضاه، وذلك يكون من فسادِ العلمِ تارةً، ومن فسادِ الإرادة تارةً، ففسادُهُ من جهةِ العلمِ أن يعتقدَ

(١) ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا هو بحسب الأفرادِ؛ فلا يضرُّ مسلمًا بعينِهِ ألا يعلم مما ذكره الشيخُ شيئًا، ولكنَّ مجموع الأمة فإنَّ الجهلَ بما ذكره الشيخ يضرُّها ضررًا بليغًا، إذ إن النظَرَ في ملكوتِ السموات والأرض لاستنباطِ أسرارِ المادةِ التي أودعها الله مصنوعاته، وامتلاكِ أسبابِ القوةِ فرضٌ واجبٌ علىٰ الأمة، وإلا امتلك ذلك أعداؤها، وتداعىٰ عليها الأَكَلَةُ من كلِّ صوبٍ، كما هو الواقعُ، فلينزَّل كلامُ الشيخِ علىٰ مراده -رحمه الله تعالىٰ-.

أنَّ هذا مشروعٌ محبوبٌ لله وليس كذلك، أو يعتقد أنَّه يقَرِّبُهُ إلىٰ الله وإن لـم يكن مشروعًا، فيظنُّ أنَّه يتقرَّبُ إلىٰ الله بهذا العملِ، وإن لـم يعلم أنَّه مشروعٌ.

وأمَّا فسادُهُ من جهةِ القَصدِ فألَّا يقصدَ به وَجْهَ الله والدارَ الآخرةَ، بل يقصدُ به الدنيا والْـخَلْقَ، وهاتان الآفتان في العلمِ والعملِ لا سبيلَ إلىٰ السلامةِ منهما إلا بمعرفةِ ما جاء به الرسولُ في باب العلمِ والمعرفةِ، وإرادةِ وجه الله والدارِ الآخرةِ في بابِ القصدِ والإرادةِ، فمتىٰ خلا من هذه المعرفةِ وهذه الإرادةِ فَسَدَ علمُهُ وعملُهُ.

والإيمانُ واليقينُ يورِّثان صحَّةَ المعرفةِ وصحَّةَ الإرادةِ،وهما يورِّثان الإيمان ويمدَّانهِ، ومن هنا يُتَبَيَّنُ انحرافُ أكثر النَّاسِ عن الإيمان لانحرافِهم عن صحَّةِ المعرفةِ وصحَّةِ الإرادةِ، ولا يتمُّ الإيمانُ إلا بتلقِّي المعرفةِ من مشكاةِ النبوةِ، وتجريدِ الإرادةِ عن شوائبِ الهوىٰ وإرادةِ الْـخَلقِ، فيكون علمُهُ مُقْتَبَسًا من مشكاةِ الوحي، وإرادتُه لله والدارِ الآخرةِ، فهذا أصحُّ النَّاسِ علمًا وعملًا، وهو من الأئمةِ الذين يهدون بأمرِ الله، ومن خلفاءِ رسولِهِ في أمَّتِه»[1].

وقد يكون العبدُ هاجرًا لكتاب الله تعالىٰ، وهو مقيمٌ لحروفِهِ يلوكُ بها لسانَهُ، ويظنُّ أنه قد أَوفَىٰ علىٰ الغايةِ وبلغَ النهايةِ، وما هو في حقيقةِ الأمرِ إلا هاجرٌ لكتابِ ربِّه بهجرِهِ للعملِ به.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَجرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُها: هَجرُ سماعِهِ، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١١٢).

والثاني: هَجرُ العملِ به، والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ، وإن قَرَأَهُ وآمَنَ به.

والثالثُ: هَجرُ تحكيمِهِ والتحاكمِ إليه في أصولِ الدينِ وفروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يفيد اليقينَ، وأنَّ أدلَّتَه لفظيَّةٌ، لا تحصِّلُ العلمَ.

والرابعُ: هَجرُ تدبُّرِهِ وتفهُّمِهِ، ومعرفةِ ما أرادَ المتكلِّمُ به منه.

والخامسُ: هَجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميعِ أمراضِ القلوبِ وأدوائِهَا، فيطلب شفاءَ دائِهِ من غيرِهِ، ويهجرُ التداوي به.

وكلُّ هذا داخلٌ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان:٣٠][1].

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالىٰ مُخبِرًا عن رسولِه ونبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ أنَّه قالَ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآنِ ولا يستمعونه، كما قالَ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآنُ أكثروا اللَّغَطَ والكلامَ في غيرِهِ حتىٰ لا يسمعوه، فهذا من هِجرَانِهِ.

وتَرْكُ الإيمانِ به، وتَرْكُ التصديقِ به من هِجرَانِهِ.

وتَرْكُ تدبُّرِهِ وتفهُّمِهِ من هِجرَانِهِ.

وتَرْكُ العملِ به، وامتثالِ أوامرِهِ، واجتنابِ نواهيه من هِجْرَانِهِ.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٠٩).

والعدولُ عنه إلىٰ غيرِهِ من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ من غيره من هِجرَانِهِ.

فنسألُ الله الكريمَ المنَّانَ القادِرَ علىٰ كلِّ شيءٍ، أن يُخَلِّصَنا ممَّا يُسخِطُهُ، ويستعملَنَا فيما يرضيه من حِفظِ كتابِهِ، وفهمِهِ، والقيامِ بمقتضاه، آناءَ الليل وأطرافَ النَّهارِ، علىٰ الوجهِ الذي يُحبُّه ويرضاه، إنَّه كريمٌ وهَّابٌ»[1].

فَمِنْ هَجْرِ القرآنِ كما رأيتَ: تركُ العملِ به، وإن كان الهاجِرُ مقيمًا لحروفِهِ، بارعًا في تلاوتِهِ، إذ كان من أوَّلِ القَصدِ بالقرآنِ العملُ به، والوقوفُ عند حلالِهِ وحرامِهِ، والائتمارُ بأمرِهِ، والانتهاءُ بنهيه.

ومهما يكن للعالِمِ من بيانٍ مُشرِقِ السِّمَاتِ، حُلوِ القَسَمَاتِ، فعملُهُ ينبغي أن يكون مُصَدِّقًا لقولِهِ، دليلًا عليه وبرهانًا له.

وفي مخالفةِ القولِ للعملِ مفسدةُ الصَّدِّ عن سبيلِ الله، كما قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علماءُ السُّوءِ جلسوا علىٰ بابِ الجنَّةِ، يدعون إليها النَّاسَ بأقوالهم، ويدعُونهم إلىٰ النَّارِ بأفعالهم، فكلَّما قالت أقوالُهم للنَّاسِ: هَلمُّوا، قالت أفعالُهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دَعَوا إليه حقًّا كانوا أولَ المستجيبين له، فهم في الصورةِ أَدِلَّاءُ، وفي الحقيقة قُطَّاعُ الطريقِ»[2].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣١٧).

(٢) «الفوائد» (ص٨١).

الدَّلِيلُ بِالفِعلِ أَرشَدُ مِنَ الدَّلِيلِ بِالقَولِ:

ما أرسل الله تعالىٰ رسولًا، ولا بَعثَ نبيًّا، إلا وهو قُدوَةٌ سلوكيةٌ يجسِّدُ للمدعوِّين ما يدعوهم إليه من مكارِمِ الأخلاقِ، وحميدِ الخِصَالِ وكريمِ الخِلالِ، وحقيقةِ التوحيدِ.

وقد كان النبيُّ ﷺ أعظمَ الْـخَلْقِ اتباعًا لأمرِ ربِّه، واجتنابًا لنهيه، وقد كان ﷺ يجسِّدُ الدينَ تجسيدًا، فما أَمَرَ بشيءٍ إلا وكان أولَ الناسِ إتيانًا له، ولا نهىٰ عن شيءٍ إلا كانَ أولَ النَّاسِ انتهاءً عنه وأبعدَ النَّاس عنه، فصلَّىٰ الله تعالىٰ وسلَّم عليه وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين.

والنَّاسُ إلىٰ الاقتداءِ بالعملِ أحوجُ منهم إلىٰ استماعِ القولِ، وقديمًا قيل: فِعلُ رَجُلٍ أَنْفَعُ لأَلفِ رَجُلٍ مِن كَلامِ أَلفِ رَجُلٍ لِرَجُلٍ.

فالدليلُ بالفعلِ أرشدُ من الدليلِ بالقولِ، وهو دَرسٌ تعلَّمه ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو بَعدُ حَدَثٌ صغيرٌ، فكان أفعَلَ في نفسِهِ من السِّحرِ، وأَجدَىٰ عليه من كثيرٍ من القولِ، ثمَّ هاهو يدلُّ عليه ويُرشِدُ إليه فيقول: «لقيتُ مشايخَ أحوالُـهُم مختلفةٌ، يتفاوتون في مقاديرِهم في العلمِ، وكان أنفعَهم لي في صحبتِهِ العاملُ منهم بعلمِهِ، وإن كان غَيرُهُ أعلمَ منه.

ولقيتُ جماعةً من علماء الحديثِ يحفظون ويعرفون، ولكنَّهم كانوا يتسامحون بغِيبةٍ يُـخرجونها مَـخْرَجَ جَرحٍ وتعديلٍ، ويأخذون علىٰ قراءةِ الحديثِ أُجرَةً ويُسرعون بالجوابِ لِئلاَ ينكسرَ الجاهُ، وإن وَقَعَ الخطأُ.

ولقيتُ عبد الوهابِ الأنماطيَّ، فكان علىٰ قانونِ السَّلَفِ لـم يُسمَع في مجلسِهِ غِيبَةٌ ولا كان يطلبُ أجرًا علىٰ سماعِ الحديثِ، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرقائقِ بكىٰ، واتَّصَلَ بكاؤُهُ.

فكان -وأنا صغيرُ السِّنِّ حينئذٍ- يعمل بكاؤُهُ في قلبي، ويبني قواعدَ، وكان علىٰ سَمتِ المشايخِ الذين سمعنا أوصافَهم في النقلِ.

ولقيتُ الشيخَ أبا منصورٍ الجواليقيَّ، فكان كثيرَ الصمتِ، شديدَ التحرِّي فيما يقولُ، مُتقِنًا مُحَقِّقًا، وربَّما سُئِلَ المسألةَ الظاهرةَ التي يبادرُ بجوابِهَا بعضُ غلمانِهِ، فيتوقَّفُ فيها حتىٰ يتيقَّنَ.

وكان كثيرَ الصومِ والصمتِ، فانتفعتُ برؤيةِ هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي بغيرِهما.

ففهمتُ من هذه الحالةِ أنَّ الدليلَ بالفعلِ أرشدُ من الدليلِ بالقولِ.

ورأيتُ مشايخَ كانت لهم خَلوَاتٌ في انبساطٍ ومُزَاحٍ، فراحوا عن القلوب، وبَدَّدَ تفريطُهم ما جمعوا من العلمِ، فقَلَّ الانتفاعُ بهم في حياتهم، ونُسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحدٌ أن يلتفت إلىٰ مصنَّفَاتِهم، فاللَّهَ اللَّهَ في العملِ بالعلمِ، فإنَّه الأصلُ الأكبرُ.

والمسكينُ كلُّ المسكينِ مَن ضاعَ عُمُرُهُ في علمٍ لـم يعمل به، ففاتَتهُ لذَّاتُ الدنيا وخيراتُ الآخرةِ، فقَدِمَ مُفْلسًا مع قُوَّةِ الْحُجَّةِ عليه»[1].

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي، تحقيق عبد القادر عطا (ص١٦٨).

وَصفُ الطَّريقِ، ومَا يَلزَمُ السَّفَرَ العظيمَ:

وصفَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ الطريقَ، والزَّادَ، والمَركَبَ اللازمَ للسفرِ العظيمِ؛ سَفَرِ العبدِ إلىٰ ربِّه وآخرتِهِ، فقال: «أمَّا زَادُهُ: فالعلمُ الموروثُ من خاتَمِ الأنبياءِ ﷺ، ولا زَادَ له سواه، فَمَن لـم يحصِّل هذا الزَّادَ فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخَالِفينَ.

فرفقاءُ المتَخَلِّفِ البطَّالون أكثرُ من أن يُحصَوا، فَلَهُ أُسْوَةٌ بهم، ولن ينفعَهُ هذا التَّأسِّي يومَ الحسرةِ شيئًا، كما قالَ تعالىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، فقطعَ الله سبحانه انتفاعَهم بعضهم ببعضٍ في العذابِ؛ فإنَّ مصائبَ الدنيا إذا عَمَّتْ صارت مَسْلَاةً، وتأسَّىٰ بعضُ المصابين ببعضٍ كما قالت الخنساءُ:

وَلَـولا كَثـرَةُ البَاكِـينَ حَولِـي عَـلَىٰ إخـوانِهِم لَقَـتَلتُ نَفـسِي

ومَـا يَـبْكُونَ مِـثلَ أخِـي ولَكِـن أُسَـلِّي الـنَّفسَ عَـنـهُ بالتَّأسِّـي

فهذا الرَّوحُ الحاصلُ من التأسِّي معدومٌ بين المشتركين في العذابِ يومَ القيامةِ.

وأمَّا طَرِيقُهُ: فهو بَذلُ الجهدِ واستفراغُ الوُسعِ، فلا يُنَالُ بِالْـمُنَىٰ ولن يُدرَكَ بالْـهُوَينىٰ، وإنما هو كما قيل:

فَخُضْ غَمَراتِ الْمَوتِ وَاسمُ إلَىٰ العُلا لِكَـي تُـدرِكَ العِـزَّ الـرَّفِيعَ الـدَّائمِ[1]

---

(١) هكذا وَرَدَ البيتُ في جميعِ طَبَعَاتِ كتاب الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، بهذه الضرورة الشعريةِ القبيحةِ في كسرِ رقبةِ النحو، وما كان أجدرَ الإمامَ ابنَ القيمِ، وهو مَن هو سَعَةَ حفظٍ واطلاعٍ أن يستشهد بغيرِ هذا الشعرِ، وفيه ما فيه.

فَلا خَيرَ فِي نَفْسٍ تَخَافُ مِن الرَّدَىٰ ... ولا هِمَّةٍ تَصبُو إِلَىٰ لَومِ لائمِ

ولا سبيلَ إلىٰ ركوبِ هذا الظَّهرِ إلا بأمرين:

أحدُهما: ألا يصبوَ في الحقِّ إلىٰ لومِ لائم، فإنَّ اللَّومَ يصيبُ الفارسَ فيصرعُهُ عن فرسِهِ، ويَجعلُهُ صريعًا في الأرضِ.

والثاني: أن تهونَ عليه نفسهُ في الله؛ فيُقدِمَ حينئذٍ ولا يخاف الأهوالَ، فمتىٰ خافت النفسُ تأخَّرت وأحجمت وأخلدت إلىٰ الأرضِ.

ولا يتمُّ له هذان الأمران إلا بالصبرِ، فَمَن صَبَرَ قليلًا صارت تلك الأهوالُ ريحًا رُخَاءً في حَقِّهِ تحملُهُ بنفسِها إلىٰ مطلوبهِ، فبينما هو يخاف منها، إذ صارت أعظمَ أعوانِهِ وخَدَمِهِ، وهذا أمرٌ لا يعرفه إلا من دَخَلَ فيه.

وأمَّا مَركبُهُ: فَصِدقُ اللُّجأ إلىٰ الله والانقطاعُ إليه بكُلِّيتِهِ، وتحقيقُ الافتقارِ إليه بكلِّ وجهٍ، والضراعةُ إليه، وصِدقُ التوكُّلِ والاستعانةِ، والانطراحُ بين يديه انطراحَ المثلومِ المكسورِ الفارغِ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلَّعُ إلىٰ قيِّمِهِ ووَلِيِّهِ أن يُجِدَّهُ[1] ويَلُمَّ شَعَثَهُ، ويمدَّهُ من فضلِهِ ويستره، فهذا الذي يُرجىٰ له أن يتولَّىٰ الله هدايتَه، وأن يكشفَ له ما خَفِي علىٰ غيرِهِ من طريقِ هذه الهجرةِ، أي: الهجرة إليه سبحانه ومنازِلها»[2].

(١) **يُجِدُّهُ**: من أَجَدَّ فلانٌ: صار ذا جِدٍّ واجتهادٍ، ويجِدُّه: يجعله ذا جِدٍّ واجتهادٍ. القاموس المحيط (جدد) (١/ ١٠٩).

(٢)«زاد المهاجر إلىٰ ربه»، لابن القيم (ص٤٠).

مَدَارُ صَلاحِ أَمرِ العَبْدِ:

مَدَارُ صَلاحِ أَمْرِ العبدِ -بعد توفيقِ الله تعالىٰ له- مَنُوطٌ بِعُلُوِّ هِمَّتِهِ، فمَن رُزِقَ هِمَّةً عاليةً لـم تقف به عند منزلٍ، وإنَّما تسمو به عند كلِّ منزلٍ إلىٰ ما وراءه من المنازِلِ، كما قال عمرُ بن عبد العزيز ﷺ بعد أن رُزِقَ الخلافةَ وزَهِدَ في أُبَّهَتِهَا: لقد رُزِقتُ نفسًا تَوَّاقَةً، ما وصلت إلىٰ شيء إلا وتاقت إلىٰ ما وراءه، وقد رُزقتُ الدنيا فتاقت نفسي إلىٰ الآخرةِ.

والْـجَمعُ بين العلم والعملِ شاقٌّ عسيرٌ، يَـحتاجُ إلىٰ هِـمَّـةٍ عاليةٍ، تُورِثُ نَصَبًا لا يَزُولُ وتَعَبًا لا يَـحُولُ.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن رُزِقَ همَّةً عاليةً يُعَذَّبُ بمقدارِ عُلُوِّهَا، كما قال الشاعرُ:

وإذَا كَانَـتِ الـنُّـفُـوسُ كِـبَـارًا ... تَعِـبَت فِـي مُـرَادِهَا الأجـسَامُ

وقال الآخرُ:

وَلِكُـلِّ جِـسمٍ فِـي الـنُّحُـولِ بَلـيَّةٌ ... وَبَـلاءُ جِـسمِي مِـن تَفَـاوُتِ هِـمَّـتِـي

وبيانُ هذا أنَّ مَن عَلَت هِـمَّـتُـهُ؛ طَلَبَ العلومَ كلَّها، ولـم يقتصر علىٰ بعضها، وطَلَبَ من كلِّ علمٍ نهايتَه، وهذا لا يحتمله البدنُ.

ثمَّ يرىٰ أنَّ المرادَ العملُ، فيجتهدُ في قيام الليلِ وصيام النَّهارِ، والجمعُ بين ذلك وبين العلم صعبٌ، ثمَّ يرىٰ تَركَ الدنيا ويـحتاجُ إلىٰ ما لابُدَّ منه.

ويُحبُّ الإيثارَ ولا يقدرُ علىٰ البخلِ، ويتقاضاه الكرمُ البذلَ، ويمنعه عزُّ النفسِ عن الكسبِ من وجوه التبذُّلِ[١].

فإن هو جرىٰ علىٰ طبعِهِ من الكرمِ، احتاجَ وافتقرَ وتأثَّرَ بدَنُهُ وعائلتُهُ، وإن أمسكَ فطبعُهُ يأبىٰ ذلك.

وفي الجملة يَحتاجُ إلىٰ معاناةٍ وجمعٍ بين أضدادٍ، فهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضي، وتعبٍ لا يفرغُ.

ثمَّ إذا حقَّقَ الإخلاصَ في الأعمالِ زادَ تعبُهُ، وقوي نَصبهُ، فأين هو ومَن دَنَت هِمَّتُهُ؟ إن كان فقيهًا فسئُلِ عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان محدِّثًا فسُئِلَ عن مسألةٍ فقهيَّةٍ، قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه: مُقَصِّرٌ.

والعالي الهمَّةِ يرىٰ التقصيرَ في بعضَ العلومِ فضيحةً قد كشفت عيبَهُ، وقد أرَتِ النَّاسَ عَورَتَهُ.

والقصيرُ الهمَّةِ لا يُبَالي بمنَنِ النَّاسِ، ولا يستقبحُ سؤالهم، ولا يأنَفُ من رَدٍّ، والعالي الهمَّةِ لا يحملُ ذلك، ولكنَّ تعبَ العالي الهمَّةِ راحةٌ في المعنىٰ، وراحةُ القصيرِ الهمةِ تعبٌ وشَينٌ، إن كان ثَمَّ فَهمٌ.

والدنيا دارُ سباقٍ إلىٰ أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمَّةِ ألا يُقَصِّرَ في شَوطِهِ، فإن سَبَقَ فهو المقصودُ، وإن كَبَا جوادُهُ مع اجتهادِهِ لـم يُلَم»[٢].

(١) **التبذُّل**: تركُ الصيانةِ والترفعِ.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٥٧٠).

قال أبو الطيِّبِ:

إِذَا غَامَــــرتَ فِـــي شَرَفٍ مَـــرُومِ فَــلا تَقْــنَعْ بِمَــا دُونَ الــنُّجُــومِ
فَطَعــمُ الْمَــوتِ فِــي أمــرٍ حَقِــيرٍ كَطَعــمِ الْمَــوتِ فِــي أمــرٍ عَظِــيمِ

العَمَلُ مِن مَرَاتِبِ العلمِ، وَهُوَ ثَمَرَتُهُ:

جعلَ الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ العملَ مرتبةً من مراتبِ العلمِ، وجعلَ عدَمَ العملِ بالعلمِ موجِبًا للحرمانِ منه، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ عند قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

«للعلمِ ستُّ مراتبَ:

أولها: حُسنُ السؤالِ.

الثانيةُ: حُسنُ الإنصاتِ والاستماعِ.

الثالثةُ: حُسنُ الفَهمِ.

الرابعةُ: الحفْظُ.

الخامسةُ: التَّعلِيمُ.

السادسةُ: وهي ثمرتُهُ، وهي العملُ به، ومراعاةُ حدودِهِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُهُ لعَدَمِ حُسنِ سؤالِهِ؛ إمَّا أنَّه لا يَسألُ بحالٍ، أو يسألُ عن شيءٍ وغيرُهُ أهمُّ منه؛ كَمَن يسألُ عن فضولِهِ التي لا يضرُّ جهلُهُ بها، ويَدَعُ ما لا غِنَىٰ لَهُ عن معرفتِهِ، وهذه حالُ كثيرٍ من الْـجُـهَّـالِ المتعلِّمين.

ومن النَّاس مَن يُحرَمُهُ لسُوءِ إنصاتِهِ، فيكونُ الكلامُ والمماراةُ آثَرَ عنده وأحبَّ إليه من الإنصاتِ؛ وهذه آفَةٌ كامنةٌ في أكثَرِ النفوسِ الطَّالِبَةِ للعلمِ، وهي تمنعُهُم علمًا كثيرًا، ولو كان حَسَنَ الفَهمِ...

والمقصودُ: بيانُ حرمانِ العلمِ من هذه الوجوهِ الستَّةِ:

أحدُها: تركُ السؤالِ.

الثاني: سوءُ الإنصاتِ وعدم إلقاءِ السَّمعِ.

الثالثُ: سُوءُ الفَهمِ.

الرابعُ: عَدَمُ الحفظِ.

الخامسُ: عَدَمُ نشرِهِ وتعليمِهِ، فإنَّ من خَزَنَ علمَهُ ولم ينشرهُ ولم يُعَلِّمْهُ ابتلاهُ الله بنسيانِهِ وذَهَابِهِ منه، جَزَاءً من جنسِ عملِهِ، وهذا أمرٌ يشهد به الحِسُّ والوجودُ.

السادسُ: عَدَمُ العملِ به؛ فإنَّ العملَ به يُوجِبُ تَذكُّرَهُ وتَدَبُّرَهُ ومراعاتَهُ والنَّظَرَ فيه، فإذا أهمَلَ العملَ به نَسِيَهُ.

قال بعضُ السَّلفِ: كُنَّا نستعينُ على حفظ العلم بالعمل به.

وقال بعضُ السَّلفِ أيضًا: العلمُ يهتفُ بالعمل، فإن أجابَهُ حَلَّ وإلا ارتَحل.

فالعملُ به من أعظمِ أسبابِ حفظِهِ وثباتِهِ، وتركُ العملِ به إضاعةٌ له.

فما استُدِرَّ العلمُ ولا استُجلِبَ بمثلِ العملِ؛ قالَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨].

وأمَّا قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلَّتان: طلبيَّةٌ؛ وهي الأمرُ بالتقوىٰ، وخَبَرِيَّة؛ وهي قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: ما تتَّقونَ، وليست جوابًا للأمرِ بالتقوىٰ، ولو أُريدَ بها الجزاءُ لأتىٰ بها مجزومَةً عن الواوِ، فكان يقولُ: فَاتَّقُوا الله يُعَلِّمْكُم كما قال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] فتدبَّرهُ»[1].

* العَقَبَاتُ الثَّلاثُ:

دون العبدِ ونجاتِهِ عَقَبَاتٌ ثلاثٌ؛ فالعقبةُ الأولىٰ: عقبةُ العلمِ بما جاء به النبيُّ ﷺ، فإن تَجاوزها وعَلِمَ، فعقبةُ العملِ بما عَلِمَ، فإن تجاوزها وعَمِلَ، فعقبةُ الإخلاصِ في العملِ.

وما من شرٍّ في العالَـمِ إلا ومَبعثُهُ مخالفةُ الرسولِ ﷺ ظاهرًا وباطنًا أو هما معًا، فإذا صَحَّ التلقِّي عنه ﷺ وصحَّت المتابعةُ زالت الشرورُ علىٰ حَسَبِ قَوَّةِ التلقِّي وقوَّةِ المتابعةِ.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: هذا الذي أمرتُكم به من طاعتي وطاعةِ رسولي وأولياءِ الأمرِ، ورَدِّ ما تنازعتم فيه إليَّ وإلىٰ رسولي، خيرٌ لكم في معاشِكم ومعادِكم، وهو سعادتُكم في الدارينِ، فهو خيرٌ لكم

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١١).

وأحسنُ عاقبةً.

فدلَّ هذا علىٰ أنَّ طاعةَ الله ورسولِهِ، هو سببُ السعادةِ عاجلًا وآجلًا، ومَن تدبَّر العالَـمَ والشرورَ الواقعةَ فيه علم أنَّ كلَّ شرٍّ في العالَـمِ سَبَبُهُ مخالفةُ الرسولِ والخروجُ عن طاعتِهِ، وكلُّ خيرٍ في العالَـمِ فإنَّه بسبب طاعةِ الرسولِ ﷺ.

وكذلك شرورُ الآخرةِ وآلامُها وعذابُها إنَّما هو من موجباتِ مخالفةِ الرسولِ ومقتضياتها، فعاد شَرُّ الدنيا والآخرةِ إلىٰ مخالفةِ الرسولِ وما يترتبُ عليه، فلو أنَّ النَّاسَ أطاعوا الرسولَ حقَّ طاعتِهِ لـم يكن في الأرضِ شَرٌّ قطٌّ، وهذا كما هو معلومٌ في الشرورِ العامَّةِ والمصائبِ الواقعةِ في الأرضِ، فكذلك هو في الشَّرِّ والألَـمِ والغَمِّ الذي يصيبُ العبدَ في نفسِهِ، فإنَّما هو بسببِ مخالفةِ الرسولِ ﷺ، ولأنَّ طاعتَهُ هي الحصنُ الذي مَن دَخَلَهُ كان من الآمنين، والكهفُ الذي مَن لَجأَ إليه كانَ من الناجينَ.

فعُلِمَ أنَّ شرورَ الدنيا والآخرةِ إنَّما هو الجهلُ بما جاء به الرسولُ ﷺ والخروجُ عنه.

وهذا برهانٌ قاطعٌ علىٰ أنَّه لا نجاةَ للعبدِ ولا سعادةَ إلا بالاجتهادِ في معرفةِ ما جاء به الرسولُ ﷺ علمًا، والقيامِ به عملًا.

وكمالُ هذه السعادةِ بأمرين آخرين:

أحدُهما: دعوةُ الخلقِ إليه.

والثاني: صَبْرُهُ واجتهادُهُ علىٰ تلك الدعوةِ.

فانحصر الكمالُ الإنسانيُّ علىٰ هذه المراتبِ الأربعِ:

أحدُها: العلمُ بما جاء به الرسولُ ﷺ.

والثانيةُ: العمل به.

والثالثةُ: نشرُهُ في النَّاسِ ودعوتُهم إليه.

والرابعةُ: صبرُهُ وجهادُهُ في أدائِهِ وتنفيذِهِ.

ومَن تطلَّعت همَّتُه إلىٰ معرفةِ ما كانَ عليه الصحابةُ رضي الله عنهم وأراد اتباعَهم، فهذه طريقتُهم حقًّا.

فَإِن شِئتَ وَصْلَ القَومِ فَاسْلُكْ سَبيلَهم ... فَقَدْ وَضَحَتْ لِلسَّالِكِينَ عِيَانَا»[1]

وعليه فالعِلمُ بما جاءَ به الرسولُ ﷺ من غيرِ عَملٍ به لا يُؤَدِّي إلىٰ النجاة فضلًا عن أن يؤدي إلىٰ كمالِ السعادةِ وتمامِ الفَلاحِ.

قالَ بعضُ الحكماءِ: «لولا العقلُ لم يكن علمٌ، ولولا العلمُ لم يكن عملٌ، ولأن أدَعَ الحقَّ جهلًا به خيرٌ من أن أدعه زهدًا فيه.

وقالوا: مَن حَجَبَ الله عنه العلمَ عذَّبَهُ علىٰ الجهلِ، وأشدُّ منه عذابًا مَن أقبل عليه العلمُ فأدبَرَ عنه، ومَن أهدىٰ الله إليه علمًا فلم يعمل به.

وعن ميمون بن مهران قال: قال أبو الدرداء: ويلٌ لمن لا يعلمُ ولا يعملُ مَرَّةً، وويلٌ لمن يعلمُ ولا يعملُ سَبعَ مرَّاتٍ.

وقال رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ: قال الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ فما لنا

---

(١) «زاد المهاجر إلىٰ ربِّه» لابن القيم (ص٢٩).

ندعو فلا يُستجابُ لنا؟ فقال إبراهيم: من أجلِ خمسةِ أشياءَ، قال: وما هي؟ قال: عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقَّه، وقرأتُم القرآنَ فلم تعملوا بما فيه، وقلتم نحبُّ الرسولَ وتركتُم سنَّتَهُ، وقلتم: نلعنُ إبليس وأطعتموه، والخامسة: تركتُم عيوبَكم وأخذتُم في عيوبِ النَّاسِ»[١].

مَنْزِلَةُ الفِــرَارِ:

ومن منازِل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : منزلةُ الفِرارِ.

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات:٥٠]، وحقيقةُ الفرارِ: الهربُ من شيءٍ إلىٰ شيءٍ، وهو نوعان: فرارُ السُّعَدَاءِ، وفرارُ الأشقياءِ.

ففرارُ السعداءِ: الفرارُ إلىٰ الله ﷻ ، وفرارُ الأشقياءِ: الفرارُ منه لا إليه.

وأمَّا الفرارُ منه إليه: ففرارُ أوليائِه، قال ابن عباسٍ في قوله تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعتِهِ، وقال سهلُ بنُ عبد الله: فرُّوا ممَّا سوىٰ الله إلىٰ الله، وقال آخرون: اهربوا من عذابِ الله إلىٰ ثوابِهِ بالإيمانِ والطاعةِ.

وقال صاحبُ المنازِلِ: «هو الهربُ ممَّا لـم يكن إلىٰ مَن لـم يَزَلْ، وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ: فرار العامةِ من الجهلِ إلىٰ العلمِ عَقْدًا وسَعيًا، ومن الكسلِ إلىٰ التشميرِ جِدًّا وعَزمًا، ومن الضيق إلىٰ السَّعةِ ثقةً ورجاءً».

يريدُ بما لـم يَكُنْ: الْـخَـلـقَ، وبما لـم يَزَلْ: الْـحَـقَّ.

وقولُهُ: فِرارُ العامَّةِ من الجهلِ إلىٰ العلمِ عَقْدًا وسَعيًا.

---

(١) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢/ ٤).

الجهل نوعان: عدُم العلمِ بالحقِّ النافعِ، وعدمُ العملِ بموجبِهِ ومقتضاه.

فكلاهما جهلٌ لغةً وعُرفًا وشرعًا وحقيقةً، قال موسىٰ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، لما قال له قومُهُ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ ، أي: من المستهزئين، وقال يوسفُ الصِّدِّيقُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي: مِنْ مرتكبي ما حرَّمتَ عليهم، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء:١٧]، قال قتادةُ: أجمع أصحابُ رسولِ الله ﷺ أنَّ كلَّ ما عُصِيَ الله به فهو جهالةٌ، وقال غيرُهُ: أجمعَ الصحابةُ أنَّ كلَّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ، وقال الشاعرُ:

أَلَا لَا يَجهَلَـن أحَـدٌ عَلَيـنَا ... فَنَجْهَلَ فَـوقَ جَهْـلِ الْجَاهِلِينَا

وسُمِّيَ عدمُ مراعاةِ العلمِ جهلًا، إمَّا لأنَّه لم يُنتفع به، فَنُزِّلَ منزلة الجهلِ، وإمَّا لجهلِهِ بسوءِ ما تجني عواقبُ فعلِهِ.

فالفرارُ المذكورُ: هو الفرارُ من الجهلين: من الجهلِ بالعلمِ إلىٰ تحصيلِهِ، اعتقادًا ومعرفةً وبصيرةً، ومن جهلِ العملِ إلىٰ السعي النافعِ، والعملِ الصالِحِ قصدًا وسعيًا.

قولُهُ: ومن الكسلِ إلىٰ التشميرِ جِدًّا وعزمًا.

أي: يفرُّ من إجابةِ داعي الكسلِ إلىٰ داعي العملِ والتشميرِ بالجِدِّ والاجتهادِ.

والجِدُّ هاهنا هو صِدقُ العملِ، وإخلاصُهُ من شوائبِ الفتورِ، ووعودِ التسويفِ والتهاونِ وهو تحت السين وسوفَ، وعسىٰ، ولعلَّ، فهي أضرُّ شيءٍ علىٰ العبدِ، وهي شجرةٌ ثمرُهَا الحسراتُ والنداماتُ.

والفرقُ بين الْـجِدِّ والعزمِ: أنَّ العزمَ صِدقُ الإرادةِ واستجماعُهَا، والجِدَّ صِدقُ العملِ وبذلُ الجَهدِ فيه.

وقد أمر الله ﷻ بتلقِّي أوامرِهِ بالعزمِ والْـجِدِّ فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٦٣]. وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]. وقال: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] أي: بجدٍّ واجتهادٍ وعزمٍ، لا كمن يأخذُ ما أُمِرَ بِهِ بتردُّدٍ وفتورٍ»[1].

وقد أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بسندِهِ عن أبي القاسمِ الجنيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** «متىٰ أردتَ أن تشرَّفَ بالعلمِ وتُنسبَ إليه، وتكونَ من أهلِهِ، قبل أن تُعطيَ العلمَ ما له عليك، احتَجَبَ عنكَ نورُهُ، وبقي عليك وسمُهُ وظهورُهُ.

ذلك العلمُ عليك لا لك، وذلك أنَّ العِلمَ يشيرُ إلىٰ استعمالِهِ، فإذا لـم تستعمل العلم في مراتِبِهِ رحلت بركاتُهُ.

وقال أبو قلابَةَ لأيوبَ -رحمهما الله-: يا أيوبُ، إذا أحدَثَ الله لك علمًا فأحدث لله عبادةً، ولا يكوننَّ هَـمَّـكَ أن تُـحَدِّثَ به النَّاسَ.

وقال فضيلُ بن عياضٍ: لا يزالُ العالـمُ جاهلًا بما علم، حتىٰ يعملَ به، فإذا عَمِلَ به كان عالـمًا»[2].

والعملُ بالعلمِ، وحَملُ النَّفسِ علىٰ ما تكره من مضادَّةِ الْـهَـوىٰ، ومُجانبةُ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب (ص٣١).

الشهواتِ من جهادِ النفسِ.

«**وجهادُ النَّفسِ أربعُ مراتبَ:**

إحداها: أن يُجَاهِدَهَا علىٰ تعلُّمِ الْهُدَىٰ، ودينِ الْحَقِّ الذي لا فلاحَ لَهَا، ولا سعادةَ في معاشِهَا ومعادِهَا إلا به، ومتىٰ فاتَهَا عِلمُهُ، شقيت في الدَّارين.

الثانيةُ: أن يُجَاهِدَهَا، علىٰ العمل به بعد علمِهِ، وإلا فمجرَّدُ العلمِ بلا عملٍ إن لم يَضُرَّها لم ينفعها.

الثالثةُ: أن يُجَاهِدَهَا علىٰ الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَن لا يعلمُهُ، وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل الله من الهدىٰ والبيناتِ، ولا ينفُعُه علمُهُ، ولا يُنجِيه، من عذابِ الله.

الرابعةُ: أن يُجَاهِدَهَا علىٰ الصبرِ علىٰ مشاقِّ الدعوةِ إلىٰ الله، وأذىٰ الخلقِ، ويتحمَّل ذلك كلَّه لله.

فإذا استكملَ هذه المراتبَ الأربعَ صار من الرَّبَّانيينَ، فإنَّ السَّلَفَ مُجمِعُونَ علىٰ أنَّ العَالِـمَ لا يستحِقُّ أن يُسمَّىٰ ربانيًّا حتىٰ يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَهُ فمَن علم وعَمِلَ وعَلَّمَ فذاك يُدعىٰ عظيمًا في ملكوتِ السماوات»[1].

«**ومراتبُ العلمِ والعملِ ثلاثٌ:**

روايةٌ: وهي مجرَّدُ النَّقلِ وحَملِ المرويِّ.

ودرايةٌ: وهي فهمُهُ وتعقُّلُ معناه.

---

(١) «زاد المعاد» لابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوطيين (٣/ ١٠).

ورعايةٌ: وهي العملُ بموجبِ ما علمَهُ ومقتضاه.

فالنَّقَلَةُ هِمَّتُهم الروايةُ، والعلماءُ همَّتُهم الدرايةُ، والعارفون همَّتُهم الرعايةُ.

وقد ذَمَّ الله مَن لـم يَرعَ ما اختارَهُ وابتدعَهُ من الرهبانيةِ حقَّ رعايتِهِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، فالوقفُ التامُّ عند قولِهِ: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثمَّ يبتدئُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾؛ أي: لـم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسِهم، ولـم نكتبها عليهم، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾، منصوبٌ بمقدَّرٍ محذوفٍ مُفَسَّرٍ بهذا المذكورِ، علىٰ قولِ البصريين،أي: وابتدعوا رهبانيةً، وليس منصوبًا بوقوعِ الْـجَعلِ عليه.

أمَّا نَصبُ قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾، فالصوابُ أنَّه منصوبٌ نَصبَ الاستثناءِ المنقطعِ؛ أي: لـم يفعلوها ولـم يبتدعوها إلا لطلبِ رضوانِ الله، ودلَّ علىٰ هذا قولُهُ: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾، ثم ذكر الحاملَ لهم والباعثَ علىٰ ابتداعِ هذه الرهبانيةِ، وأنَّه هو طلبُ رضوانِ الله، ثمَّ ذمَّهم بتركِ رعايتها.

والقصدُ: أنَّ الله ﷻ ذَمَّ مَن لـم يَرعَ قُربَةً ابتدعها لله تعالىٰ حَقَّ رعايَتهَا، فكيف بِمَن لـم يَرعَ قُربَةً شرعَها الله لعبادِهِ، وأَذِنَ بها وحَثَّ عليها؟!»[1].

وأعلىٰ أصنافِ العلماء منزلةً: العالـمُ العاملُ المعلِّمُ، ويليها العالـمُ العاملُ الذي لـم يفرِّط، وأمَّا العلمُ الخالي من العملِ، الحالي بالبطالةِ والأملِ، فهو وَبَالٌ علىٰ صاحبِهِ، وفتنةٌ للخَلقِ.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٠).

«العلماءُ ثلاثةٌ:

* عالِـمٌ استنارَ بنورِهِ واستنار به النَّاسُ، فهذا من خلفاءِ الرُّسُلِ وورثةِ الأنبياءِ.

* وعالِـمٌ استنارَ بنورِهِ ولـم يستنر به غيرُهُ، فهذا إن لـم يفرِّط كان نفعُهُ قاصرًا علىٰ نفسِهِ.

* وعالِـمٌ لـم يستنر بنورِهِ، ولا استنارَ به غيرهُ، فهذا علمُهُ وبالٌ عليه»[1].

وللعلمِ الصحيحِ ثمرةٌ في القلبِ والجوارحِ واللِّسَانِ، فمَن فَقَدَ تلك الثمرةَ فهو مغبونٌ، وعلمُهُ صورةُ العلمِ دون حقيقتِهِ، والوقوفُ مع صورةِ العلمِ دون حقيقتِهِ ضربٌ من الْـخَبَالِ.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجدتُ رَأيَ نفسي في العلمِ حَسَنًا، فهي تقدِّمُهُ علىٰ كلِّ شيءٍ، وتعتقدُ الدليلَ، وتفضِّلُ ساعةَ التشاغلِ به علىٰ ساعاتِ النوافلِ، وتقولُ: أقوىٰ دليلٍ لي علىٰ فَضلِهِ علىٰ النوافلِ، أنِّي رأيتُ كثيرًا ممَّن شغلتهم نوافلُ الصلاةِ والصومِ عن نوافلِ العلمِ عاد ذلك عليهم بالقَدحِ في الأصولِ، فرأيتُهَا في هذا الاتجاه علىٰ الجادَّةِ السَّهلةِ والرأي الصحيحِ.

إلا أنِّي وجدتُها واقفةً مع صورةِ التشاغلِ بالعلمِ، فصحتُ بها: فما الذي أفَادَك العلمُ؟ أين الخوفُ؟ أين القلقُ؟ أين الحَذَرُ؟

أَوَمَا سمعت بأخبارِ أخيارِ الأحبارِ في تعبُّدهم واجتهادهم؟

أمَا كانَ الرسولُ ﷺ سيِّدَ الكُلِّ، ثمَّ إنَّه قام حتَّىٰ وَرِمَت قدماه؟

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٢).

أَمَا كان أبو بكرٍ رضي الله عنه شَجِيَّ النشيجِ، كثيرَ البكاءِ؟

أَمَا كان في خَدِّ عمر رضي الله عنه خَطَّانِ من آثارِ الدموع؟

أَمَا كانَ عثمانُ رضي الله عنه يختمُ القرآنَ في ركعةٍ[١]؟

أَمَا كان عليٌّ رضي الله عنه يبكي بالليلِ في محرابِهِ حتىٰ تَخضَلَّ لحيتُهُ بالدموعِ؟

ويقول: يا دُنيَا غُرِّي غيري؟

أَمَا كانَ الحسنُ البصري يحيا علىٰ قوَّةِ القَلَقِ؟

أَمَا كانَ سعيدُ بنُ المسيِّبِ ملازمًا للمسجدِ، فلم تَفُتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنةً؟

أَمَا صَامَ الأسودُ بنُ يزيدَ حتىٰ اخضَرَّ واصفرَّ؟[٢].

أما قالت بنتُ الربيعِ بن خثَيمٍ له: ما لي أرىٰ النَّاسَ ينامون وأنت لا تنامُ؟

فقال: إنَّ أباكِ يخافُ عذَابَ البياتِ.

أَمَا كان أبو مسلمٍ الخولانيُّ يُعَلِّقُ سَوطًا في المسجدِ يؤدِّبُ به نفسَه إذا فَتَرَ؟

أَمَا صَامَ يزيدُ الرقاشيُّ أربعين سنةً؟ وكان يقولُ: وا لهفاهُ! سبقني العابدون، وقُطِعَ بي.

---

(١) نُقلت آثارٌ كثيرةٌ في هذا ومثله في مثل: «التبيان» للنووي، وهو مُسَلَّمٌ لأصحابِهِ إن صحَّ النقلُ عنهم، ولا يُقَاسُ عليه، والسنَّةُ ألا تَقلَّ أيامُ الختم عن ثلاثة، ومرة أخرىٰ: أولئك مسلَّمٌ لهم حالُـهم -رضي الله عنهم وأرضاهم- ولا يُقاسُ عليهم.

(٢) ذكر الذَّهبيُّ في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٢): أنَّه لعلَّه لـم يبلغه النهيُ أو تأوَّل.

أَمَا صَامَ منصورُ بن المعتمرِ أربعين سنةً؟

أَمَا كان سفيانُ الثوريُّ يبكي الدمَ من الخوفِ؟

أَمَا كَانَ إبراهيمُ بن أدهم يبولُ الدمَ من الخوفِ؟

أما تعلمين أخبارَ الأئمةِ الأربعةِ في زهدِهم وتعبُّدِهم؟ أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

احذري من الإخلادِ إلىٰ صورةِ العلمِ، مع ترك العمل به، فإنَّها حالةُ الكُسَالَىٰ والزَّمْنَىٰ[1]:

وَخُذْ لَكَ مِنكَ عَلَىٰ مُهلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيشِكَ لَم يُدبِرِ

وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيلُ العِثَا ... رَ وَتَطوِي الوُرُودَ عَلَىٰ الْمَصدَرِ

وَمَثِّلِ لِنَفسِكَ أيُّ الرَّعِيـ ... ـلِ يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ الْمَحشَرِ[2]

ولا يغيبنَّ عن البالِ هنا ذلك التوجيهُ النبويُّ العظيمُ بوضعِ العملِ في دائرةِ الطاقةِ، وجَعلِ الفعلِ في إطارِ الاستطاعةِ، قال أبو هريرة ﵁: قال رسولُ الله ﷺ: **«اكْلَفُوا مِنَ الأعمَالِ مَا تُطِيقُونَ»**[3] متفقٌ عليه.

---

(١) **الزَّمانةُ**: مرضٌ يدوم، والزَّمِنُ: وصفٌ من الزمانة، والجمعُ: زَمْنَىٰ.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٧٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١١٠٣).

اكلفوا: خذوا وتحملوا.

ما تطيقون: ما تقدرون عليه دون مشقَّةٍ.

ومن هذا التوجيه النبويِّ ينطلقُ ابنُ الجوزي فيقول في «صيد الخاطر» (ص٢٠٥):

«ينبغي للعاقلِ ألا يُقدم علىٰ العزائمِ حتَىٰ يزنَ نفسَه، هل يطيقها؟ ويجرِّبَ نفسَه في ركوبِ بعضِها سِرًّا من الخَلقِ، فإنَّه لا يأمن أن يُرَىٰ في حالةٍ لا يصبر عليها، ثمَّ يعود فَيُفْتَضَحَ.

مثالُهُ: رجلٌ سمع بذكرِ الزُّهَّادِ فرمىٰ ثيابَهُ الجميلةَ، ولبسَ الدُّونَ، وانفردَ في زاويةٍ، وغَلَبَ علىٰ قلبِهِ ذِكرُ الموتِ والآخرةِ، فلم يلبث مُتَقَاضي الطَّبعِ أن ألَحَّ بما جَرَت به العادةُ.

فمن القومِ مَن عادَ بمرَّةٍ إلىٰ أكثرَ ممَّا كان عليه؛ كأكلِ النَّاقِهِ[1] من مرضٍ، ومنهم مَن توسَّطَ الحالَ فبقيَ كالمذبذبِ.

وإنما العاقلُ هو الذي يسترُ نفسَهُ بين النَّاسِ بثوبٍ وَسَطٍ لا يُخرجُهُ من أهلِ الخيرِ ولا يُدخلُهُ في زِيِّ أهلِ الفاقةِ، فإن قويت عزيمتُهُ عَمِلَ في بيتِهِ ما يطيقُ، وتَرَكَ ثَوبَ التجمُّلِ لسَترِ الحالِ، ولـم يُظهر شيئًا للخلقِ، فإنَّه أبعدُ من الرياءِ وأسلمُ من الفضيحةِ.

وفي النَّاسِ مَن غَلَبَ عليه قصرُ الأملِ وذكرُ الآخرةِ حتىٰ دَفَنَ كتبَ العلمِ، وهذا الفعلُ عندي من أعظمِ الخطأِ، وإن كان منقولًا عن جماعةٍ من الكبارِ.

ولقد ذكرتُ هذا لبعضِ مشايخنا فقال: أخطَؤوا كلُّهم.

وقد تأوَّلتُ لبعضِهم بأنَّه كان فيها أحاديثُ عن قومٍ ضعفاءَ ولـم يميِّزُوها، كما

---

(١) **النَّاقهُ**: منْ شفي من مرضٍ وهو حديثُ عهدٍ به.

رُوي عن سفيانَ عندما دَفَنَ كُتُبَهُ.

أو كان فيها شيءٌ من الرأي فلم يحبُّوا أن يُؤخذَ عنهم، فكان من جنسِ تحريقِ عثمان بن عفانَ ﵁ للمصاحفِ، لِئَلَّا يُؤخَذَ بشيءٍ مِـمَّا فيها من المجمعِ علىٰ غيرِه.

وهذا التأويلُ يصحُّ في حقِّ علمائهم.

فأمَّا غسلُ أحمد بن أبي الحواري كتبَهُ، وابن أسباطٍ، فتفريطٌ مَحْضٌ.

فالحذَرَ الحذَرَ من فِعلٍ يمنعُ منه الشَّرعُ، أو من ارتكابِ ما يظنُّ عزيمةً وهو خطيئةٌ، أو من إظهارِ ما لا يقوىٰ عليه المظهِرُ فيرجع القهقرىٰ.

وعليكم من العملِ بما تُطيقون، كما قَالَ ﷺ».

ومعنىٰ هذا أن يبذُلَ المرءُ جهدَهُ ويستفرِغَ وُسعَه، ولا يقصِّرَ في بذلٍ، ولا يبخل علىٰ العملِ بعطاءٍ، لأنَّه لا يصلُحَ العلمُ مع قِلَّةِ العملِ، وهذه نظرةُ ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبيلِ صلاح القلوبِ بالجمعِ بين العلم والعملِ، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيتُ الاشتغالَ بالفقهِ وسماعِ الحديثِ لا يكادُ يكفي في صلاحِ القلبِ، إلا أن يُمزَجَ بالرقائقِ والنظرِ في سِيرَ السَّلَفِ الصالحين، لأنَّهم تناولوا مقصودَ النَّقلِ، وخرجوا عن صُورِ الأفعالِ المأمورِ بها إلىٰ ذوقِ معانيها، والمرادِ بها.

وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجةٍ وذَوقٍ؛ لأنِّي وَجَدتُ جمهورَ المحدِّثين وطلابَ الحديثِ، هـمَّـةُ أحدِهم في الحديثِ العالي وتكثيرِ الأجزاءِ.

وجمهورَ الفقهاءِ في علوم الجَدَلِ، وما يُغَالَبُ به الخَصمُ.

وكيف يَرِقُّ القلبُ مع هذه الأشياءِ؟

وقد كان جماعةٌ من السَّلَفِ يقصدون العبَدَ الصالحَ للنظرِ إلىٰ سَمتِهِ وهَديه لا لاقتباسِ علمِهِ.

وذلك أنَّ ثمرةَ علمِهِ هديُهُ وسمتُهُ، فافهم هذا وامزج طَلَبَ الفقهِ والحديثِ بمطالعةِ سِيَرِ السَّلَفِ والزُّهَّادِ في الدنيا، ليكون سببًا لرقَّةِ قلبكِ، والله الموفِّقُ للمقصودِ، ولا يصلحُ العملُ مع قِلَّةِ العلمِ.

فَهُمَا في ضَربِ المثَلِ كسائقٍ وقائدٍ، والنَّفسُ بينهما حَرُونٌ، ومع جِدِّ السائقِ والقائدِ ينقطعُ المنزلُ، ونعوذُ بالله من الفُتُورِ»[١].

لقد حضَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ النظرِ في سِيَرِ السَّلَفِ، وقد صار هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنا سلفًا، فالنظرُ في سيرته هو، يرويها بنفسِهِ عن نفسهِ بليغٌ في بلاغِ البيانِ، وفصيحٌ في الإفصاحِ عن حقيقةِ هذا الشانِ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «صيد الخاطر» (ص٢٧٥):** «لقد تأمَّلتُ نفسي بالإضافةِ إلىٰ عشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهم في اكتسابِ الدنيا، وأنفقتُ زَمَن الصَّبْوَةِ والشبابِ في طَلَبِ العلمِ، فرأيتني لـم يفتني مما نالوه إلا ما لو حَصَلَ لي نَدِمتُ عليه. ثمَّ تأمَّلتُ حالي فإذا عيشي في الدنيا أجودُ من عيشهم، وجاهي بين النَّاسِ أعلىٰ من جاههم، وما نلتهُ من معرفةِ العلمِ لا يُقَاوَمُ.

فقالَ لي إبليسُ: ونسيتَ تَعبَكَ وسَهَرَك؟

فقلتُ له: أيُّهَا الجاهلُ، تقطيعُ الأيدي لا وَقعَ له عند رؤيةِ يوسفَ.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٥٣).

وما طالت طريقٌ أدَّت إلىٰ صديقٍ:

جَـزَىٰ اللَّـه الْمَـسيرَ إلَـيهِ خَـيرًا وَإن تَـرَكَ الْمَطَايَـا كَالْمَـزَادِ[(١)]

ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبي العلمَ ألقىٰ من الشدائدِ ما هو عندي أحلىٰ من العسلِ لأجلِ ما أطلبُ وأرجو.

كنتُ زمانَ الصِّبَا آخُذُ معي أرغفةً يابسةً فأخرج في طلبِ الحديثِ، وأقعدُ علىٰ نهرِ عيسىٰ، فلا أقدرُ علىٰ أكلِهَا إلا عند الماءِ، فكلَّما أكلتُ لقمةً شربتُ عليها، وعَيْنُ همتي لا ترىٰ إلا لَذَّةَ تحصيلِ العلمِ.

فأثمر ذلك عندي أنِّي عُرفتُ بكثرةِ سماعي لحديث الرسولِ ﷺ وأحوالِهِ وآدابِهِ، وأحوالِ أصحابِهِ وتابعيهم.

وأثمرَ ذلك عندي من المعاملةِ ما لا يُدركُ إلا بالعلمِ، حتىٰ إنني أَذكُرُ في زمانِ الصبوةِ، ووقتِ الغُلْمَةِ[(٢)] والعُزبَةِ قدرتي علىٰ أشياءَ كانت النفسُ تَتُوقُ إليها تَوقَان العطشان إلىٰ الماءِ الزُّلالِ، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلمُ من خوفِ الله ﷻ .

ولولا خطايا لا يخلو منها البشرُ، لقد كنتُ أخاف علىٰ نفسي من العُجبِ، غير أنَّه ﷻ صانني، وعلَّمني، وأطلعني من أسرارِ العلمِ علىٰ معرفتِهِ، وإيثارِ الخَلوةِ به، حتَّىٰ إنَّه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبشرٌ[(٣)] لرأيتُهما زَحْمَةً.

(١) **المزادةُ**: وعاءٌ يُحمل فيه الماءُ في السَّفَرِ، كالقِربَةِ ونحوِها، والجمعُ: مَزَادٌ.

(٢) **الغُلْمَةُ**: شدَّةُ الشهوةِ للجماعِ.

(٣) معروفٌ الكرخيُّ أبو محفوظ من كبار الزهاد، وبشرُ بن الحارثِ الزاهدُ المعروف.

ثمَّ عادَ فغمسني في التقصيرِ والتفريطِ حتَّىٰ رأيتُ أقلَ النَّاسِ خيرًا مني.

وتارةً يُوقظني لقيامِ الليلِ ولذَّةِ مناجاتِهِ، وتارةً يحرمني ذلك مع سلامةِ بدني.

ولولا بشارةُ العلمِ بأنَّ هذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ لخرجتُ إمَّا إلىٰ العجبِ عند العملِ، وإمَّا إلىٰ اليأسِ عند البطالةِ لكنَّ رجائي في فضلِهِ قد عَادَلَ خوفي منه.

وقد يغلبُ الرجاءُ بقوَّةِ أسبابِهِ؛ لأنِّي رأيتُ أنَّه قد ربَّاني منذ كنتُ طفلًا، فإنَّ أبي قد مات وأنا لا أعقلُ، والأمُّ لـم تلتفت إليَّ، فركزَ في طبعي حبَّ العلمِ، وما زال يوقعني علىٰ المهمِّ فالمهمِّ، ويحملني إلىٰ مَن يحملني علىٰ الأصوبِ حتَّىٰ قَوَّمَ أمري.

وكم قد قَصَدَني عدوٌّ فصدَّه عَنِّي، وإذ رأيتُه قد نصرني وبصَّرني ودافعَ عني ووهبَ لي، وقَوَّىٰ رجائي في المستقبلِ بما قد رأيتُ في الماضي.

ولقد تاب علىٰ يديَّ في مجالسِ الذِّكرِ أكثرُ من مئتي ألفٍ، وأسلم علىٰ يديَّ أكثرُ من مئتي نَفسٍ.

وكم سالت عينُ متجبِّرٍ بوعظي لـم تكن تسيلُ.

ويحقُّ لمن تَلَمَّحَ هذا الإنعامَ أن يرجو التمامَ.

وربَّما لاحت أسبابُ الخوفِ بنظري إلىٰ تقصيري وزَلَلي.

ولقد جلستُ يومًا فرأيتُ حولي أكثرَ من عشرةِ آلافٍ ما فيهم إلا مَن قد رَقَّ قلبُهُ، أو دمعت عينُهُ، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إذا نَجَوا وهلكت؟ فصحتُ بلسانِ وَجدِي: إلهي وسيدي! إن قضيتَ عليَّ بالعذابِ غدًا فلا تُعْلِمْهُم بعذابي، صيانةً لكرمكَ لا لأجلي، لِئلا يقولوا: عَذَّبَ مَن دَلَّ عليه.

إِلَـهِي! قد قيل لنبيِّك ﷺ: اقتل ابن أُبيٍّ المنافقَ، فقال: «**لا يتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَهُ**»[١].

إِلَـهِي! فاحفظ حسنَ عقائِدهم فيَّ بكرمِكَ أن تُعْلِمَهُم بعذابِ الدليلِ عليك.

حاشاك وعزَّتِكَ يا ربِّ من تكديرِ الصافي.

لا تَبْـــرِ عُـــودًا أنـــتَ ريَّـــشتَهُ ... حَاشَـىٰ لِبَانــي الْجُـودِ أن يَنْقُـضَا

لا تُعْطِــشِ الـــزَّرعَ الـــذي نَبــتُهُ ... بِصَــوبِ إنعَـامِـكَ قَــد رَوَّضَــا»

تَسَاؤُلٌ وَجَوَابٌ:

«لَـمَّا كان طلبُ العلمِ والبحثُ عنه وكتابتُهُ والتفتيشُ عليه من عَمَلِ القلبِ والجوارحِ كان من أفضلِ الأعمالِ، ومنزلتُهُ من عَمَلِ الجوارحِ كمنزلةِ أعمالِ القلب من الإخلاصِ والتوكُّلِ والمحبَّةِ والإنابةِ والخشيةِ والرِّضَا ونحوها من الأعمالِ الظاهرةِ.

فإن قيل: فالعلمُ إنما هو وسيلةٌ إلىٰ العَمَلِ ومُرَادٌ له، والعملُ هو الغايةُ، ومعلومٌ أنَّ الغايةَ أشرفُ من الوسيلةِ فكيف تُفَضَّلُ الوسائلُ علىٰ غاياتِها؟

قيل: كلٌّ من العلمِ والعملِ ينقسمُ قسمين:

منه ما يكونُ وسيلةً.

ومنه ما يكونُ غايةً.

(١) رواه البخاري (٤٦٢٤)، ومسلم (٢٥٨٤).

فليس العلمُ كلُّه وسيلةً مرادةً لغيرِها؛ فإنَّ العلمَ بالله وأسمائِهِ وصفاتِهِ هو أشرَفُ العلومِ علىٰ الإطلاقِ، وهو مطلوبٌ لنفسهِ مُرادٌ لذاتِهِ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، فقد أخبر سبحانه أنَّه خَلقَ السماواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ بينهنَّ ليُعلِمَ عبادَهُ أنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، فهذا العلمُ هو غايةُ الخَلقِ المطلوبةُ، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

فالعلمُ بوحدانيتِهِ تعالىٰ وأنَّه لا إله إلا هو مطلوبٌ لذاتِهِ وإن كان لا يُكتفىٰ به وحدَهُ، بل لابُدَّ معه من عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له، فهما أمران مطلوبان لأنفسِهما: أن يُعرَفَ الرَّبُّ تعالىٰ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ، وأن يُعبَدَ بموجبِها ومُقتَضاها، فكما أنَّ عبادَتَهُ مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتها، فكذلك العلمُ به ومعرفتُهُ.

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ مِن أفضلِ أنواعِ العباداتِ، فهو مُتَضَمِّنٌ للغايةِ والوسيلةِ.

وقولُكم: إنَّ العملَ غايةٌ، إمَّا أن تريدوا به العملَ الذي يَدخُلُ فيه عملُ القلبِ والجوارحِ، أو العملَ المختصَّ بالجوارحِ فقط.

فإن أُريد الأولُ فهو حَقٌّ، وهو يدلُّ علىٰ أنَّ العلمَ غايةٌ مطلوبةٌ لأنَّه من أعمالِ القلبِ.

وإن أريد به الثاني، وهو عملُ الجوارحِ فقط، فليس بصحيحٍ، فإنَّ أعمالَ القلوبِ مقصودةٌ ومرادةٌ لذاتِها، بل في الحقيقةِ أعمالُ الجوارحِ وسيلةٌ مرادةٌ لغيرها؛ فإنَّ الثوابَ والعقابَ والمدحَ والذَّمَّ وتوابِعَهَا هو للقلبِ أصلًا وللجوارحِ تبعًا، وكذلك

الأعمالُ المقصودُ بها أوَّلًا صلاحُ القلبِ واستقامتُهُ وعبوديتُهُ لربِّه ومليكِهِ، وجُعلت أعمالُ الجوارحِ تابعةً لهذا المقصودِ مُرَادَةً، وإن كان كثيرٌ منها مُرادٌ لأجلِ المصلحةِ المتَرَتِّبَةِ عليه، فَمِن أجَلِّها صلاحُ القلبِ وزكاؤهُ وطهارتهُ واستقامتُهُ، فعُلِمَ أنَّ الأعمالَ منها غايةٌ ومنها وسيلةٌ، وأنَّ العلمَ كذلك.

وأيضًا: فالعلمُ الذي هو وسيلةٌ إلىٰ العملِ فقط إذا تَـجَرَّدَ عن العملِ لـم ينتفع به صاحبُهُ فالعملُ أشرفُ منه.

وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُهُ المطلوبةُ منه من نفسِهِ فهذا لا يُقَالُ: إنَّ العملَ المجرَّدَ أشرفُ منه، فكيف يكون مُجَرَّدُ العبادةِ البدنيةِ أفضلَ من العلمِ بالله وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ، ومنَ العلمِ بأعمالِ القلوبِ وآفاتِ النفوسِ والطُّرقِ التي تُفسِدُ الأعمالَ وتمنع وصولَها من القلبِ إلىٰ الله، والمسافاتِ التي بين الأعمالِ والقلب، وبين القلب والرَّبِّ تعالىٰ، وبما تُقطعُ تلك المسافاتُ، إلىٰ غير ذلك من علمِ الإيمانِ وما يُقَوِّيهِ وما يُضعِفُهُ؟!

فكيف يُقال: إنَّ مجرَّدَ التَّعبُّدِ الظاهرِ بالجوارحِ أفضلُ من هذا العلمِ؟! بل مَن قام بالأمرين فهو أكملُ، فإذا كان في أحدهما فضلٌ ففضلُ هذا العلمِ خَيرٌ من فَضلِ العبادةِ، فإذا كان في العبدِ فَضلَةٌ -زيادةٌ وبقيةٌ- كان صَرفُهَا إلىٰ العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ أفضلَ من صَرفها إلىٰ مجرَّدِ العبادةِ.

فهذا فَصلُ الخِطَابِ في هذه المسألةِ، والله أعلمُ»[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٤).

الاغتِرَارُ بالعلمِ دَاعيةُ البَطَالَةِ وتَركِ العَمَلِ:

فِي رَصدٍ دقيقٍ لهذه الظاهرةِ من ظواهرِ تعلُّقِ العلمِ بالعملِ يُظهر ابنُ الجوزيِّ -وهو عالـمٌ من علماءِ القلوبِ الحاذقينِ- عَوَارَ أقوامٍ وَسَمَهُم العلمُ بوَسمِهِ، ولـم تَنفُذ بشاشتُهُ إلىٰ قلوبهم، فكان العلمُ وبالًا عليهم ونقمةً مَسُوقَةً إليهم، والله العاصمُ من الضلالِ لا ربَّ غيرُهُ ولا إلهَ سواه.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صيد الخاطر» (ص٣٨٠): «رأيت جماعةً من العلماءِ يتفسَّحون[1] ويظنُّون أنَّ العلمَ يدفعُ عنهم، وما يدرون أنَّ العلم خصمُهم، وأنَّه يُغفَرُ للجاهلِ سبعون ذنبًا قبلَ أن يُغفَرَ للعالِـمِ ذنبٌ[2].

وذاك أنَّ الجاهلَ لـم يتعرَّض بالحقِّ، والعالِـمَ لـم يتأدَّب معه.

ورأيتُ بعضَ القومِ يقول: أنا قد ألقيتُ منجلي بين الحصَّادين ونمتُ، ثمَّ يتفسَّح في أشياءَ لا تجوزُ.

فتفكَّرتُ فإذا العلمُ الذي هو معرفةُ الحقائقِ، والنظرُ في سيرِ القدماءِ والتأدُّبُ بآدابِ القومِ ومعرفةُ الحقِّ وما يجب له، ليس عند القومِ.

وإنَّما عندهم صورُ ألفاظٍ يعرفون بها ما يحلُّ وما يحرُمُ، وليس ذلك العلمَ النافعَ.

إنَّما فَهمُ الأصولِ ومعرفةُ المعبودِ وعظمتِهِ وما يستحقُّه، والنظرُ في سيَرِ الرسولِ ﷺ وصحابتِهِ، والتأدُّبُ بآدابِهم، وفهمُ ما نُقِلَ عنهم -هو العلمُ النافعُ الذي يَدَعُ أعظمَ

(١) يتوسعون في استعمالِ الرُّخَصِ.

(٢) هذا من كلام الفضيل بن عياض، وكأنه للترهيب قيل. [الحلية؛ لأبي نعيم (٧/ ٢٨٦)].

العلماءِ أحقرَ عند نفسِهِ من أجهلِ الجهَّالِ.

ورأيتُ بعضَ مَن تَعبَّدَ مدَّةً ثمَّ فَتَرَ، فبلغني أنَّه قال: قد عبدتُهُ عبادةً ما عَبَدَهُ بها أحدٌ، والآن قد ضَعُفْتُ.

فقلتُ: ما أخوفني أن تكون كلمتُه هذه سببًا لردِّ الكلِّ؛ لأنَّه قد رأىٰ أنَّه عَمِلَ مع الحقِّ شيئًا، وإنَّما وقف يسألُ النجاةَ بطلبِ الدرجاتِ، ففي حقِّ نفسِهِ فَعَلَ، وما مَثَلُهُ إلا كَمَثَلِ مَن وقف يُكدِي[1] فلا ينبغي أن يَمُنَّ علىٰ المعطي.

وإنَّما سببُ هذا الانبساطِ الجهلُ بالحقائقِ، وأين هو من كبارِ علماءِ المعاملةِ الذين كان فيهم مثلُ: صلَةَ بنِ أشيمَ إذا رآه السَّبُعُ هرب منه، وهو يقول إذا انقضىٰ الليلُ عند صلاتِهِ: يا ربِّ أجرني من النَّارِ، أَوَ مِثلي يَسألُ الجنَّةَ؟[2].

وأبلغُ من ذا قولُ عمر ﷺ: وَدِدتُ أن أنجوَ كفافًا لا لي ولا عليَّ.

وقولُ سفيانَ عند موته لحمادِ بن سلمةَ: أترجو لمثلي أن ينجو من النَّارِ.

وقولِ أحمد: لا؛ بَعدُ.

فأنا أحمَدُ الله ﷻ إذ تخلَّصتُ من جهلِ المتَّسمينَ بالعلمِ من هؤلاء الذين ذممتُهم، وبالزهدِ من هؤلاء الذين عبتُهم، فإنِّي قد اطَّلعتُ من عظمةِ الخالقِ وسِيَرِ المحقِّقين علىٰ ما يُخرِسُ لسانَ الانبساطِ، ويمحو النظرَ إلىٰ كلِّ فعلٍ.

وكيف أنظرُ إلىٰ فعلي المستحسَنِ، وهو الذي وَهَبَهُ لي وأطلعني علىٰ ما خَفِيَ

---

(١) يُكدي: يُلِحُّ في المسألةِ.

(٢) انظر قصة صلة بن أشيم التي ذكرها ابن الجوزي في كتابه: «صفة الصفوة» (٢/ ١٢٩)، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٧).

عن غيري؟!

فهل حَصَلَ ذلك بي أو بلطفهِ؟ وكيف أشكرُ توفيقي للشكرِ؟

ثمَّ أيُّ عالـمٍ إذا سَبَرَ أمورَ العلماءِ من القدماءِ لـم يحتقر نفسَه؟

هذا في صورةِ العلمِ، فدَع معناه.

وأيُّ عابدٍ يسمعُ بالعبَّادِ ولا يجري في صورةِ التعبُّدِ؟! فَدَعِ المعنىٰ.

نسألُ الله ﷻ معرفةً تعرِّفُنَا أقدارنا، حتىٰ لا يبقىٰ للعُجْبِ بمحتَقَرِ ما عندنا أثرٌ في قلوبنا، ونرغبُ إليه في معرفةٍ لعظمتهِ تُـخرِسُ الألسُنَ أن تنطقَ بالإدلالِ، ونرجو من فضلِهِ توفيقًا نلاحظُ به آفاتِ الأعمالِ التي بها نزهو حتىٰ تُثمِرَ الملاحظةُ لعيوبها الخَجلَ من وجودها، إنَّه قريبٌ مجيبٌ». اهـ

«رَأَيتُ أكثرَ العلماءِ مشتغلين بصورةِ العلمِ دون فَهمِ حقيقتِهِ ومقصودِهِ.

فالقارئُ مشغولٌ بالرواياتِ، عاكفٌ علىٰ الشواذِّ، يرىٰ أنَّ المقصودَ نفسُ التلاوةِ، ولا يتلمَّحُ عظمةَ المتكلِّمِ، ولا زَجرَ القرآنِ ووعدَهُ.

وربَّما ظنَّ أنَّ حفظَ القرآنِ يدفعُ عنه، فتراه يترخَّصُ في الذنوبِ، ولو فَهِمَ لَعَلِمَ أنَّ الحجَّةَ عليه أقوىٰ مِمَّن لـم يقرأ.

والمحدِّثُ يجمعُ الطُّرُقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتأمَّلُ مقصودَ المنقولِ، ويرىٰ أنَّه قد حَفِظَ علىٰ النَّاسِ الأحاديثَ، فهو يرجو بذلك السلامةَ، وربَّما ترخَّصَ في الخطايا ظَنًّا منه أنَّ ما فَعَلَ في الشريعةِ يدفعُ عنه.

والفقيهُ قد وَقَعَ له أنَّه بما قد عَرَفَ من الجِدَالِ الذي يقوِّي به خصامَهُ، والمسائلِ التي قد عرف فيها المذهبَ، قد حصَّلَ بما يُفتي به النَّاسَ ما يرفعُ قَدرَهُ، ويمحو ذَنْبَهُ.

فربَّما هَجَمَ علىٰ الخطايا ظَنًّا منه أنَّ ذلك يدفعُ عنه، وربَّما لـم يحفظ القرآنَ ولـم يعرف الحديثَ، وأنهما ينهيان عن الفواحشِ بزجرٍ ورفقٍ، وينضاف إليه مع الجهلِ بهما حُبُّ الرياسةِ، وإيثارُ الغَلَبَةِ في الْـجَدَلِ، فتزيدُ قسوةُ قلبه.

وعلىٰ هذا أكثرُ النَّاسِ، صورُ العلمِ عندهم صناعةٌ، فهي تُكسبهم الكبرَ والحماقةَ.

وقد حكىٰ بعضُ المعتبرين عن شيخٍ أفنىٰ عُمُرَهُ في علومٍ كثيرةٍ، أنَّه فُتِنَ في آخرِ عُمُرِهِ بفسقٍ أصرَّ عليه، وبارزَ الله به، وكانت حالُهُ بمضمونها: أنَّ علمي يدفع عني شَرَّ ما أنا فيه ولا يبقىٰ له أثرٌ.

وكان كأنَّه قد قَطَعَ لنفسهِ بالنجاةِ، فلا يُرىٰ عنده أثَرٌ لخوفٍ ولا نَدَمٌ علىٰ ذنبٍ.

قال: فتغيَّر في آخرِ عمرِهِ، ولازمه الفقرُ، فكان يلقىٰ الشدائدَ، ولا ينتهي عن قُبحِ حالِهِ، إلىٰ أن جُمِعَت له يومًا قراريطُ علىٰ سبيلِ الكُديةِ[1]، فاستحيا من ذلك، وقال: يا رب إلىٰ هذا الحدِّ؟

قال الحاكي: فتعجَّبتُ من غَفْلَتِهِ كيف نسيَ الله ﷻ، وأراد منه حُسنَ التدبيرِ له، والصيانةَ، وسعَةَ الرزقِ، وكأنَّه ما سمع قولَه تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

ولا عَلِمَ أنَّ المعاصي تَسُدُّ أبوابَ الرزقِ، وأنَّ من ضَيَّعَ أمرَ الله ضيَّعه الله.

فما رأيتُ علمًا ما أفاد كعلمِ هذا؛ لأنَّ العالِـمَ إذا زَلَّ انكسَر، وهذا مُصِرٌّ لا تُؤلِـمُه

(١) **الكُديةُ**: السؤالُ.

معصيتُه، وكأنَّه يجوزُ له ما يفعلُ، أو كأنَّ له التصرُّفَ في الدِّينِ تَحليلًا وتَحريمًا!!
فمرضَ عاجلًا، ومات علىٰ أقبحِ حالٍ.

قال الحاكي: ورأيتُ شيخًا آخرَ حَصَّلَ صُورَ علمٍ، فما أفادته، كان أيُّ فسقٍ أمكنه لـم يتحاش منه، وأيُّ أمرٍ لـم يُعجبه من القَدَرِ عارضَهُ بالاعتراضِ علىٰ المقدِّرِ واللَّومِ فعاش أكدَرَ عيشٍ، وعلىٰ أقبحِ اعتقادٍ حَتَّىٰ دَرجَ[1].

وهؤلاء لـم يفهموا معنىٰ العلمِ، وليس العلمُ صورَ الألفاظِ، إنَّما المقصودُ فهمُ المرادِ منه، وذاك يورث الخشيةَ والخوفَ، ويُري المنَّةَ للمنعمِ بالعلمِ، وقوَّةَ الحجَّةِ له علىٰ المتعلِّمِ.

نسألُ الله يقظةً تُفَهِّمُنا المقصودَ،وتعرِّفنا المعبودَ.

ونعوذُ بالله من سبيلِ رَعَاعٍ يتسمون بالعلماءِ، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبَّرون علىٰ النَّاسِ بما لا يعلمون، ويأخذون عَرَضَ هذا الأدنىٰ وقد نُهوا عمَّا يأخذون، غَلَبَتهم طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أخسُّ حالًا من العوامِّ الذين يجهلون: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧]»[2].

جَهْلُ العَمَلِ:

جَهلُ العملِ هو عدمُ العملِ علىٰ مقتضىٰ الحقِّ النافعِ والعلمِ الرشيدِ.

وهذا سفيانُ بنُ عُيينةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَعظُ خَلاد بن يزيد الأرقط، وكان أبو زيدٍ عمرُ

---

(١) دَرَجَ: مات.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٥٤٤).

ابن شبَّة إذا ذَكَرَ خَلادًا قال: كان من الجبالِ الرواسي نُبلًا؛ يَصِفُ جلالَتَه ونُبْلَهُ.

قال خلاد: أتيتُ سفيانَ بن عيينة فقال: «إنَّما يأتي بك الجهلُ لا ابتغاءُ العلمِ، لو اقتصر جيرانُك علىٰ علمِك كفاهم، ثمَّ كَوَّم كومةً من بطحاءَ ثمَّ شقَّها بأصبعِهِ ثمَّ قال: هذا العلمُ أخذتَ نصفَه، ثم جئتَ تبتغي النصفَ الباقي، فلو قيل: أرأيتَ ما أخذتَ هل استعملتَه؟ فإذا صدقتَ قلتَ: لا، فيُقَالُ لكَ: ما حاجتُك إلىٰ ما تزيدُ به نفسَك وِقرًا علىٰ وِقرٍ؟ استعمل ما أخذت أوَّلًا»(١).

فالسَّلَفُ -رحمهم الله تعالىٰ- يذمُّونَ جهلَ العملِ ذَمًّا شديدًا، ويحذِّرونَ من علماءِ السُّوءِ الذين لهم ظاهرٌ يَغُرُّ وباطنٌ يَضرُّ، ويفيضون في رميهم بكل نقيصةٍ وتهمةٍ، ويضربون لهم الأمثالَ.

وهذا وهيبُ بن الوردِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يضربُ المثلَ فيقول: «مَثَلُ عَالِـمِ السُّوءِ كَمَثَلِ حَجَرٍ دُفِعَ في ساقيةٍ فلا هو يشربُ من الماءِ، ولا هو يُخلي عن الماءِ فيحيا به الشجرُ، ولو أنَّ علماءَ السُّوءِ نصحوا لله في عبادِهِ فقالوا: يا عبادَ الله، اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم، وصالحِ سلفكم، فاعملوا به، ولا تنظروا إلىٰ أعمالنا فإنَّا مفتونون، كانوا قد نصحوا لله في عبادِهِ، ولكنهم يريدون أن يدعُوا عبادَ الله إلىٰ أعمالهم القبيحةِ فيدخلوا معهم فيها»(٢).

هذا هو شأنُ العلمِ، إن لـم يتحقَّق منه النفعُ، استُجلِبَ به الضُّرُّ، كما قال سفيانُ ابنُ عُيينةَ: «العلمُ إن لـم ينفعك ضَرَّك»، يقولُ الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا ومفسِّرًا:

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي(ص٨٤).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص٦٧).

يعني إن لـم ينفعه بأن يعملَ به، ضَرَّه بكونِهِ حجَّةً عليه[١].

وتوضِّحُ حكمةُ «مالك بن دينارٍ» الأمرَ، إذ يقولُ: إني وجدتُ في بعضِ الحكمةِ: لا خيرَ لك أن تعلمَ ما لـم تعلم ولـم تعمل بما قد علمتَ؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجلٍ احتطبَ حَطَبًا، فَحَزَمَ حُزْمَةً ذَهَبَ يحملُها فعجزَ عنها، فَضَمَّ إليها أخرىٰ»[٢].

وأحرىٰ بِمَن مَنَّ الله عليه بالانتسابِ إلىٰ العلمِ، أن يكونَ مخبتًا لله قانتًا، وأن يكونَ بعلمِهِ عاملًا، وأن يدَعَ الغفلةَ جانبًا، وأن يجتهدَ في أن ينسلخَ من جهلِهِ بعدمِ مواقعةِ السيئاتِ؛ إذ السيئاتُ أصلُها الجهلُ، وهو إلىٰ العلمِ منتسبٌ.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَّا السيئاتُ فمنشَؤُها الجهلُ والظلمُ، فإنَّ أحدًا لا يفعلُ سيئةً قبيحةً إلا لعدمِ علمِهِ بكونها سيئةً قبيحةً، أو لهواه وميلِ نفسهِ إليها، ولا يتركُ حسنةً واجبةً إلا لعدمِ علمِهِ بوجوبها، أو لبغضِ نفسِهِ لها.

وفي الحقيقة: فالسيئاتُ كلُّها ترجعُ إلىٰ الجهلِ، وإلا فلو كان عالِـمًا بأنَّ فعل هذا يضرُّهُ ضررًا راجحًا، لـم يفعله، فإنَّ هذا خاصيَّةُ العاقلِ، ولهذا إذا كان من الحسناتِ ما يعلم أنَّه يضرُّه ضررًا راجحًا؛ كالسقوطِ من مكانٍ عالٍ، أو في نهرٍ يُغرِقُهُ، أو المرور بجنبِ حائطٍ مائلٍ، أو دخولِ نارٍ مُتأجِّجَةٍ، أو رَمي ماله في البحرِ ونحو ذلك؛ لـم يفعله، لعلمِهِ بأنَّ هذا ضررٌ لا منفعةَ فيه.

ومَن لـم يعلم أنَّ هذا يضرُّه، كالصبي، والمجنون، والسَّاهي، والغافلِ، فقد يفعل ذلك.

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٦).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٧).

ومَن أقدَمَ علىٰ ما يضُرُّهُ -مع علمهِ من الضررِ عليه- فَلِظَنِّه أنَّ منفعتَه راجحةٌ، فإمَّا أن يجزمَ بضررٍ مرجوحٍ، أو يظنَّ أنَّ الخيرَ راجحٌ، فلابُدَّ من رجحان الخيرِ، إمَّا في الظنِّ وإمَّا في المظنونِ؛ كالذي يركبُ البحرَ ويسافر الأسفارَ البعيدةَ للربحِ فإنَّه لو جَزَمَ بأنَّه يغرقُ أو يَخسَرُ لما سَافَرَ، لكنَّه يترجَّحُ عنده السلامةُ والربحُ، وإن كان مخطئًا في هذا الظَنِّ.

وكذلك الذنوبُ: إذا جَزَمَ السارقُ بأنَّه يُؤخَذُ ويُقطع، لـم يسرق، وكذلك الزاني: إذا جَزَمَ بأنَّه يُرجَمُ، لـم يَزنِ، والشاربُ يختلفُ حالُهُ، فقد يُقدِمُ علىٰ جلدِ أربعين أو ثمانين، ويُدِيم الشُّربَ مع ذلك، ولهذا كان الصحيحُ: أنَّ عقوبَةَ الشاربِ غيرُ محدودةٍ، بل يجوز أن تنتهي إلىٰ القتلِ، إذا لـم ينتهِ إلا بذلك، كما جاءت بذلك الأحاديثُ.

وكذلك العقوباتُ: متىٰ جَزَمَ طالبُ الذنبِ بأنَّه يحصلُ له به الضَّرَرُ الراجحُ لـم يفعله، بل إمَّا ألا يكون جازمًا بتحريمِهِ، أو يكون غيرَ جازمٍ بعقوبتِهِ، بل يرجو العفوَ بحسناتٍ، أو توبةٍ، أو بعفوِ الله، أو يغفلُ عن هذا كلِّه، ولا يستحضرُ تحريمًا، ولا وعيدًا، فيبقىٰ غافلًا، غيرَ مستحضرٍ للتحريمِ، والغفلةُ من أضدادِ العلمِ.

فالغفلةُ والشهوةُ أصلُ الشرِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

والهوىٰ وحده لا يستقلُّ بفعل السيئاتِ إلا مع الجهلِ، وإلا فصاحبُ الْـهَـوىٰ إذا عَلِمَ قطعًا أنَّ ذلك يضرُّهُ ضررًا راجحًا؛ انصرفت نفسُهُ عنه بالطبعِ، فإنَّ الله تعالىٰ جَعَلَ في النَّفسِ حُبًّا لِـمَا ينفعها، وبُغضًا لِـمَا يضرُّها، فلا تفعل ما تجزم بأنَّه يضرُّها

ضررًا راجحًا، بل متىٰ فعلته كان لضعفِ العقلِ، ولهذا كان البلاءُ العظيمُ من الشيطانِ، لا من مجرَّدِ النفسِ، فإنَّ الشيطانَ يُزَيِّنُ لها السيئاتِ، ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسِنِ؛ التي هي منافعُ لا مَضَارُّ، كما فعل إبليسُ بآدمَ وحواء، فقالَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [طه:١٢٠-١٢١]، ﴿ ± ² ³ ´ µ ¶ ¸ ¹ º » ¼ ½ ¾ ¿ À ﴾ [الأعراف:٢٠].

فأصلُ ما يُوقِع النَّاسَ في السيئَاتِ: الجهلُ، وعدمُ العلمِ بكونها تضرُّهم ضررًا راجحًا أو ظنُّ أنَّها تنفعهم نفعًا راجحًا.

ولهذا قال الصحابةُ رضي الله عنهم: «كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ»، وفسَّروا بذلك قولَهُ تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ [النساء:١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام:٥٤]، ولهذا يسمَّىٰ حالُ فعلِ السيئاتِ جاهلية، فإنَّه يصاحبها حالٌ من حالِ الجاهليةِ.

قال أبو العاليةِ: سألتُ أصحابَ محمدﷺ عن هذه الآيةِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾، فقالوا: كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ، ومَن تابَ قبيلَ الموتِ، فقد تابَ من قريبٍ.

وعن قتادةَ قالَ: أجمعَ أصحابُ محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ علىٰ أنَّ كلَّ مَن عصىٰ الله

رَبَّهُ فهو في جهالةٍ، عمدًا كان أو لـم يكن، وكلَّ مَن عَصَىٰ الله فهو جاهلٌ، وكذلك قال التابعون مِنْ بعدهم.

قال مُـجَاهدٌ: مَن عملَ ذنبًا -من شيخٍ أو شابٍّ- فهو بجهالةٍ.

وقال: مَن عصىٰ ربَّه فهو جاهلٌ حتىٰ ينزعَ عن معصيتِهِ.

وقال أيضًا: هو إعطاءُ الجهلِ العمد.

وقال مُـجَاهدٌ أيضًا: مَن عَمِلَ سوءاً خطأً أو إثمًا عمدًا، فهو جاهلٌ حتىٰ ينزع منه.

ورُوي عن مُـجَاهدٍ والضَّحَاكِ قالا: ليس من جهالتِهِ ألا يعلمَ حلالًا ولا حرامًا؛ ولكن من جهالتِهِ حين دَخَلَ فيه.

وقال عكرمةُ: الدنيا كلُّها جهالةٌ.

وعن الحسن البصريِّ أنَّه سُئلَ عنها -أي: الآية- فقال: هم قومٌ لـم يعلموا ما لهم مـمَّـا عليهم، قيل له: أرأيتَ لو كانوا قد علموا؟ قال: فليخرجوا منها فإنَّها جهالةٌ.

قلتُ: ومـمَّـا يبيِّنُ ذلك: قولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وكلُّ مَن خشيَه، وأطاعَه، وتركَ معصيتَه، فهو عالِـمٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩].

وقال رجلٌ للشعبيِّ: أيُّها العالِـمُ، فقال: إنَّما العالِـمُ مَن يخشىٰ الله.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، يقتضي أنَّ كلَّ مَن خشي الله فهو عالِـمٌ؛ لأنَّه لا يخشاه إلا عالِـمٌ، ويقتضي أيضًا: أنَّ العالِـمَ مَن يخشىٰ الله كما قال السَّلَفُ.

قال ابن مسعودٍ: كفىٰ بخشية الله علمًا، وكفىٰ بالاغترارِ به جهلًا.

ومثلُ هذا الحصرِ يكون من الطرفين، حصرِ الأوَّلِ في الثاني، وهو مطَّردٌ، وحَصرِ الثاني في الأولِ نحو قولِهِ: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس:١١]، وقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة:١٥-١٦].

ومن ذلك:

أنَّه أثبتَ الخشيةَ للعلماءِ، ونفاها عن غيرِهم، وهذا كالاستثناءِ، فَإِنَّهُ من النفي إثباتٌ عند جمهورِ العلماءِ، كقولنا: «لا إله إلا الله» وقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فإذا كان العلمُ يوجبُ الخشيةَ الحاملةَ علىٰ فِعلِ الحسناتِ، وتركِ السيئاتِ، وكلُّ عاصٍ فهو جاهلٌ ليس بتامِّ العلمِ، تَبَيَّنَ ما ذكرنا من أنَّ أصلَ السيئاتِ الجهلُ، وعدمُ العلمِ»[1].

(١) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية (ص٥٩)، وانظر: ذم الجهل، لمحمد بن سعيد بن رسلان، باب: بيان جهل العمل.

الخَلاصُ في الإخلاصِ، وإنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَن لم يُخلِصْ:

كما ينبغي أن يكون العلمُ -تحصيلًا وجمعًا- لله خالصًا، كذلك ينبغي أن يكون العملُ -أداءً وفعلًا- لله خالصًا، لأنَّ الله تعالىٰ طيِّبٌ لا يقبل من العملِ إلا ما كان طَيِّبًا وأُريد به وجهه.

«ينبغي أن يكون العملُ كلُّه لله، ومعه، ولأجلِهِ.

وقد كفاك كلَّ مخلوقٍ وجَلَبَ لك كلَّ خيرٍ.

وإيَّاك أن تميلَ عنه بموافقةِ هوًىٰ وإرضاءِ مخلوقٍ، فإنَّه يعكس عليك الحالَ، ويفوتُك المقصودُ.

وفي الحديثِ: «**مَن أَرضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ الله وَكَلَهُ الله إِلَىٰ النَّاسِ، وَمَن أسْخَطَ النَّاسَ بِرضَا الله كَفَاهُ الله مؤنَةَ النَّاسِ**»[1].

وأطيبُ العَيشِ عَيشُ من يعيشُ مع الخالق سبحانه.

فإن قيل: كيف يعيشُ معه؟

قلتُ: بامتثالِ أمرِهِ، واجتنابِ نهيه، ومراعاةِ حدودِهِ، والرضا بقضائِهِ، وحُسنِ الأدبِ في الخَلوَةِ، وكَثْرَةِ ذِكرِهِ، وسلامةِ القلبِ من الاعتراضِ في أقدارِهِ.

فإن احتجتَ سألتَهُ، فإن أَعطَىٰ وإلا رضيتَ بالمنعِ، وعلمتَ أنَّه لم يمنع بُخلًا وإنَّما نظرًا لك.

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها. «صحيح الجامع» رقم (٥٨٨٦) وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم(٢٣١١).

ولا تنقطع عن السؤال لأنَّك تتعبَّدُ به، ومتىٰ دُمتَ علىٰ ذلك رزقَك محبّتَه وصِدقَ التوكُّلِ عليهِ، فصارتِ المحبَّةُ تدلُّكَ علىٰ المقصودِ، وأثمرت لك محبّتَهُ إياكَ، فحينئذٍ تعيشُ عَيْشَ الصدِّيقين.

ولا خَيرَ في عيشٍ إن لـم يكن كذا، فإنَّ أكثرَ النَّاسِ مُخبِّطٌ في عيشِهِ، يُداري الأسبابَ، ويميلُ إليها بقلبِهِ، ويتعبُ في تحصيلِ الرزقِ بحرصٍ زائدٍ علىٰ الحدِّ، وبرغبةٍ إلىٰ الخَلقِ، ويعترضُ عند انكسارِ الأغراضِ.

والقَدَرُ يجري ولا يبالي بسخطٍ، ولا يحصلُ له إلا ما قُدِّرَ.

وقد فاتهُ القُربُ من الحقِّ والمحبَّةُ له، والتأدُّبُ معه، فذلك العيشُ عيشُ البهائمِ»[1].

قال مالكُ بن دينارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ العالِـمَ إذا لـم يعمل بعلمِهِ زَلَّت موعظتُهُ عن القلوبِ كما يزِلُّ القَطرُ عن الصَّفَا».

وكان سوَّارٌ يقول: «كلامُ القلبِ يقرعُ القلبَ، وكلامُ اللسانِ يمرُّ علىٰ القلبِ صَفْحًا».

وقال زيادٌ: «إذا خرج الكلامُ من القلبِ وَقَعَ في القلبِ، وإذا خرج من اللِّسَانِ لـم يجاوز الآذانَ».

وقال بعضُ الحكماءِ: «إذا كانت حياتي حياةَ السَّفيهِ، وموتي موتَ الجاهلِ، فما يُغني عني ما جمعتُ من غرائبِ الحكمةِ».

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٦٣).

وقال الحسنُ بن آدم: «ما يغني عنك ما جمعتَ من حكمةِ الحكماءِ وأنت تجري في العملِ مجرىٰ السفهاءِ».

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ إدريس الجزيريُّ الوزيرُ الكاتبُ:

والعِلمُ لَيسَ بِنَافعٍ أربَابَهُ ... مَا لم يُفِدْ عَمَلاً وحُسَنَ تَبَصُّرِ

سِيَّانَ عِندي عِلمُ مَن لم يَستَفِد ... عَمَلاً بِهِ وصَلاةُ مَن لم يَطهُرِ

فاعمَل بِعِلمِكَ تُوفِ نَفسَكَ وَزنَهَا ... لا تَرضَ بالتَّضييعِ وَزنَ الْمُخسِرِ

وأنشد أحمد بن محمد بن مسروقٍ:

إِذَا كُنتَ لا تَرتَابُ أنَّكَ مَيِّتٌ ... وَلَستَ بَعدَ الْمَوتِ تَسعَىٰ وتَعمَلُ

فَعِلمُكَ مَا يُجدي وَأنتَ مُفَرِّطٌ ... وَذِكرُكَ فِي الْمَوتَىٰ مُعَدٌّ مُحَصَّلُ

وقالَ منصورُ بنُ إسماعيلَ الفقيهُ:

إذَا كُنتَ تَعلَمُ أن الفِرَا ... قَ فِرَاقَ الْحَيَاةِ قَرِيبٌ قَرِيب

وَأنَّ الْمُعِدَّ جِهَازَ الرَّحيلِ ... لِيَومِ الرَّحيلِ مُصِيبٌ مُصِيب

وَأنَّ الْمُقَدِّمَ مَا لا يَفُو ... تُ عَلَىٰ مَا يَفُوتُ مَعِيبٌ مَعِيب

وَأنتَ عَن ذَاكَ لا تَرعَوِي ... فَأمرُكَ عِندِي عَجِيبٌ عَجِيب

وقال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يفوقُ النَّاسَ في العلمِ جديرٌ أن يفوقهم في العملِ».

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لي ابنُ المبارك: أكثرُكم علمًا ينبغي أن يكون أكثرَكم خوفًا».

وعن الحسَنِ في قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، قال: «عُلِّمتُم ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلمٍ».

وقال أيوبُ السختيانيُّ: «قالَ لي أبو قلابة: يا أيوبُ إذا أحدَثَ الله لكَ علمًا فأحدث له عبادةً، ولا يكن هَمَّكَ أن تحدِّثَ به».

وقال عليُّ بن الحسينِ: «كان نقشُ خاتمِ حسينِ بن عليٍّ: عَلِمتَ فاعمل».

وعن مالكِ بن مغولٍ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧] قال: تركوا العملَ به.

وقال الحسنُ: إنَّ أشدَّ النَّاسِ حسرةً يومَ القيامةِ رجلان: رجلٌ نَظَرَ إلىٰ مالِهِ في ميزانِ غيرِهِ سَعِدَ به وشَقِيَ هو به، ورجلٌ نَظَرَ إلىٰ علمِهِ في ميزانِ غيرِهِ سَعِدَ به وشَقِيَ هو به[1].

ألا وإنَّ من جملةِ العملِ بالعلمِ أن يقومَ العالِمُ ببثِّه ويتوفَّر علىٰ نشرِهِ وإذاعتِهِ، وقد بلغ العلماءُ في هذا المسلكِ مبالغَ عظيمةً جدًّا، فرحمةُ الله تعالىٰ عليهم أجمعين.

وهذا مَثَلٌ قريبٌ؛ لأنَّ الإمامَ الشوكانيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُوفِّي سنةَ خمسين ومئتين وألفٍ من الهجرةِ، وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستفرِغًا طاقتَه كلَّها في التعلُّم وبثِّ العلمِ وإذاعتِهِ، بحيث يعجبُ المرءُ كيف يتسعُ زمانٌ لمثلِ هذا، ولكنها بركةُ الله تعالىٰ تشملُ الأزمانَ كما تشمل الأمكنةَ وتشملُ الأحياءَ.

وقد ذكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسموعاتِهِ ومقروءاتِهِ علىٰ شيوخه، وهي جملةٌ وافرةٌ، ثم ذكر ما أُجيزَ به من الشيوخ إجمالًا وقال: إنَّها لا تدخل تحت الحصرِ كما يحكي ذلك مجموعُ أسانيدِهِ.

---

(١) انظر هذه الآثار في «جامع بيان العلم» (٢/ ٨).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ **في ترجمته لنفسِهِ:** «وقد دَرَّسَ في جميعِ ما تقدَّم ذكره وأخذه عنه الطَّلَبَةُ، وتكرَّرَ أخذُهم عنه في كلِّ يومٍ من تلك الكتبِ، وكثيرًا ما كان يقرأ علىٰ مشايخِهِ، فإذا فرَغَ من قراءةِ كتابٍ أخذه عنه تلامذتُهُ: بل اجتمعوا علىٰ الأخذِ عنه قبل أن يفرغَ من قراءةِ الكتابِ علىٰ شيخِهِ.

وكان يبلغُ دروسُهُ في اليوم والليلةِ إلىٰ نحو ثلاثةَ عشر درسًا، منها ما يأخذه عن مشايخِهِ، ومنها ما يأخذه عنه تلامذتُه، واستمرَّ علىٰ ذلك مُدَّةً حتىٰ لـم يبقَ عند أحدٍ من شيوخهِ ما لـم يكن من جملةِ ما قد قرأه، بل انفردَ بمقروءاتٍ بالنسبةِ إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم علىٰ انفرادِهِ، إلا شيخه العلامة عبد القادر بن أحمد فإنه مات ولـم يكن قد استوفىٰ ما عنده.

ثُمَّ إنَّ صاحبَ الترجمةِ -أي: الشوكانيَّ- فَرَّغَ نفسَهُ لإفادةِ الطلبةِ، فكانوا يأخذون عنه في كلِّ يومٍ زيادةً علىٰ عشرةِ دروسٍ في فنونٍ متعدِّدةٍ، واجتمع فيها في بعضِ الأوقات:

التفسيرُ، والحديثُ، والأصولُ، والنحوُ، والصرفُ، والمعاني، والبيانُ، والمنطقُ، والفقهُ، والْـجَدَلُ، والعَروضُ.

وكان في أيام قراءتِهِ علىٰ الشيوخِ وإقرائِهِ لتلامذتِهِ يُفتي أهلَ صنعاءَ، بل ومَن وَفَدَ إليها، بل تَرِدُ الفتاوىٰ من الديارِ التهاميَّةِ، وشيوخُهُ إذ ذاك أحياءٌ، وكادت الفتيا تدور عليه من عوامِّ النَّاسِ وخاصَّتِهم، واستمر يُفتي من نحو العشرين من عُمُره فما بعد ذلك، وكان لا يأخذ علىٰ الفُتيا شيئًا تنَزُّهًا، فإذا عُوتِبَ في ذلك قال: أنا أخذتُ العلمَ بلا ثمنٍ فأريد إنفاقَهُ كذلك.

وأخذ عنه الطلَبَةُ كتبًا غير الكتبِ المتقدمةِ، أي: التي ذكرها قراءةً علىٰ شيوخِهِ ممَّا لا طريقَ له فيها إلا الإجازة، وهي كثيرةٌ جدًّا في فنونٍ عدَّةٍ، بل أخذوا عنه في فنونٍ دقيقةٍ لـم يقرأ في شيءٍ منها كعلمِ الحكمةِ التي منها: علمُ الرياضي، والطبيعي، والإلهي، وكعلمِ الهيئةِ، وعلمِ المناظرِ، وعلمِ الوضعِ، وصنَّفَ تصانيفَ مطوَّلاتٍ ومختصراتٍ»[1].

وقد قدَّمتُ الشوكانيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الذِّكرِ لقُربِ زمانِهِ من زماننا، وحتىٰ لا يحتجَّ أحدٌ بمضيِّ زمانِ الهممِ السوابقِ، وانقطاعِ زمانِ السَّبقِ، والنبوغِ، وإلا فإن كثيرًا ممَّن تقدَّم الشوكانيَّ من علمائنا، كانوا أعلىٰ همَّةً وأرفعَ في سماء المجدِ هامةً.

فقد كان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية متوفِّرًا علىٰ العبادةِ والعلمِ والإفادةِ لا يقطعه عن ذلك قاطعٌ، ولا يشغله عنه شاغلٌ، حتىٰ أفضىٰ إلىٰ ربِّه، رحمة الله عليه.

قال في «العلماء العُزَّاب» (ص١٠٧): «قال الذهبيُّ عنه: لـم يتزوَّج ولا تسرَّىٰ، ولا كان له من المعلوم إلا شيءٌ قليلٌ[2]، وكان أخوه يقوم بمصالحِه، وكان لا يطلب منهم غداءً ولا عَشَاءً غالبًا، وما كانت الدنيا منه علىٰ بالٍ».

ومع عُلُوِّ كعبِهِ في العلمِ فقد كانَ في العملِ طويلَ الباعِ جدًّا، ذا تعبُّدٍ وإنابةٍ وخشوعٍ، وقد كان كما قال الأئمةُ الناقلون عنه: قلَّ أن سُمِعَ بمثلِهِ، إنَّه كان قد قطع جُلَّ وقتِهِ وزمانِهِ في العبادةِ، حتَّىٰ إنَّه لـم يجعل لنفسِهِ شاغلةً تشغلُهُ عن الله وما يُزاوِلُه، لا من أهلٍ ولا من مالٍ، وكان في ليلِهِ منفردًا عن النَّاسِ كلِّهم خاليًا بربِّه عَزَّ وَجَلَّ، ضارِعًا

(١) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢١٨).

(٢) يقصدون بالمعلومِ: الراتبَ الذي يُرتفق به من بيتِ المال.

إليه، مواظبًا علىٰ تلاوةِ القرآنِ العظيمِ مكرِّرًا لأنواعِ التعبُّداتِ الليليةِ والنهاريةِ، وكان إذا دخل الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤهُ.

وكان إذا رأىٰ في طريقه منكرًا أزاله، أو سمع بجنازةٍ سارع للصلاةِ عليها، أو تأسَّفَ علىٰ فواتِها، ولا يزالُ تارةً في إفتاءِ النَّاسِ، وتارةً في قضاء حوائجهم حتىٰ يصلِّي الظهرَ مع الجماعةِ، ثم كذلك بقيةُ يومه، وكان مجلسُهُ عامًّا للكبيرِ والصغيرِ والجليلِ والحقيرِ، ويرىٰ كلٌّ منهم في نفسِهِ أنَّه لـم يكرم أحدًا بقدرِهِ، ثمَّ يصلِّي المغربَ وتُقرأ عليه الدروسُ، ثم يُصلِّي العشاءَ، ثمَّ يُقبل علىٰ العلومِ إلىٰ أن يذهبَ طويلٌ من الليلِ، وهو في خلالِ ذلك كلِّه الليل والنهار لا يزال يذكرُ الله تعالىٰ ويوحِّدُهُ ويستغفرُهُ.

وقد كان من الغايةِ التي يُنتهىٰ إليها في الورعِ أنَّ الله تعالىٰ أجراه مُدَّةَ عُمُرِهِ كلَّها علىٰ الوَرَعِ، فإنَّه ما خالَطَ النَّاس في بيعٍ ولا شراءٍ، ولا معاملةٍ ولا تجارةٍ ولا مشاركةٍ، ولا مزارعةٍ، ولا عمارةٍ، ولا كانَ ناظرًا ولا مباشرًا لمالِ وَقفٍ، ولـم يقبل جرايةً ولا صلةً لنفسِهِ من سلطانٍ، ولا أميرٍ، ولا تاجرٍ، ولا كان مُدَّخِرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنما كانت بضاعتهُ مُدَّةَ حياتِهِ، وميراثُه بعد وفاتِه رحمه الله تعالىٰ، العلم، اقتداءً بِسيِّدِ المرسلينﷺ، فإنَّه قال: «**إنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبيَاءِ، إنَّ الأنبيَاءَ لـم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرهَمًا ولَكِن وَرثوا العلمَ؛ فَمَن أَخَذَ بِهِ فقَد أخذَ بِحظٍّ وافِرٍ**»[(١)].

وقد جعلَ الله الزهدَ شعارَهُ من صغرِهِ، واتفق كلُّ مَن رآه، خصوصًا مَن مَالَ

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترغيب» (١/ ٣٣).

إلىٰ ملازمتِهِ، أنَّه ما رأىٰ مِثْلَه في الزهدِ في الدنيا، واشتُهر عنه ذلك حتىٰ لو سُئِلَ عاميٌّ من أهلِ بلدٍ بعيدٍ: مَن أزهدُ أهلِ هذا العصرِ وأكملُهم في رَفضِ فضولِ الدنيا، وأحرصُهم علىٰ طَلَبِ الآخرةِ؟ لقال: ما سمعتُ بمثل ابن تيمية.

وما اشتُهرَ بذلك إلا لمبالغتِهِ في الزهدِ مع تصحيحِ النيةِ؛ لـم يُسمع أنَّه حرص علىٰ دينارٍ ولا درهمٍ، ولا رَغِبَ في دوابَّ ولا نَعَمٍ، ولا ثيابٍ فاخرةٍ ولا حَشَمٍ، ولا زاحم في طَلَبِ الرياساتِ، ولا رؤي ساعيًا في تحصيلِ المباحاتِ، مع أنَّ الملوكَ والأمراءَ والتجارَ والكبراءَ كانوا طَوعَ أمرِهِ خاضعين لقولِهِ، وادِّين أن يتقرَّبوا إلىٰ قلبِه مهما أمكنهم، مظهرين لإجلالِهِ، فأين حالُه هذا من حالِ مَن أغراهم الشيطانُ بالوقيعةِ فيه، أمَا نظروا ببصائرهم إلىٰ صفاتِهم وصفاتِهِ، وسماتِهم وسماتِه، وتحاسدهم في طلبِ الدنيا وفراغِهِ عنها، ومبالغتِهِ في الهربِ منها، وخدمتهم للأمراءِ واختلافهم إلىٰ أبوابِهم، وذُلِّ الأمراءِ بين يديه وعدم اكتراثِه بهم، وقوةِ جأشِهِ في محاوراتهم؟ بلىٰ والله، ولكن قتلتهم الحالقةُ حالقةُ الدينِ، لا حالقةُ الشعرِ.

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع رفضِهِ للدنيا وتقلُّلِهِ منها: مُؤثرًا بما عساه يجدهُ منها قليلًا كان أو كثيرًا، لا يحتقر القليلَ فيمنعه ذلك عن التصدقِ به، ولا الكثيرَ فيصرفه النظرُ إليه عن الإسعافِ به، فقد كان يتصدَّق حتَّىٰ إذا لـم يجد شيئًا نَزَعَ بعضَ ثيابِهِ فيصلُ به الفقراءَ، وكان يستفضِلُ من قوتِهِ الرغيفَ والرغيفين فيُؤثر بذلك علىٰ نفسِهِ.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متوسطًا في لباسِهِ لا يلبس فاخرَ الثيابِ بحيث يُرمَقُ ويُمَدُّ النظرُ إليه، ولا أطمارًا ولا غليظةً تشهرُ لابسَها من عالـمٍ أو عابدٍ، بل كان لباسُهُ وهيئتُه كغالبِ النَّاسِ ومتوسطيهم، ولـم يكن يلبس نوعًا واحدًا من اللباسِ، بل يلبس ما

اتفقَ وحصلَ، ويأكلُ ما حَضرَ، وكانت بذاذةُ الإيمانِ عليه ظاهرةً، لا يُرىٰ متصنِّعًا في عمامةٍ ولا لباسٍ، ولا مشيةٍ ولا قيامٍ ولا جلوسٍ، ولـم يُسمع أنَّه أمَرَ أن يُتَّخَذَ له ثوبٌ بعينِهِ، بل كان أهلهُ يأتون بلباسِهِ وقتَ حاجتِهِ لبدلِ ثيابِه التي عليه، وربَّما اتَّسخت ولا يأمرُ بغسلِها حتىٰ يسأله أهلُه ذلك، وكذا كان في المأكلِ، فما سُمع أنَّه طَلَبَ طعامًا قطُّ ولا عَشَاءً ولا غَدَاءً، ولو بقي مهما بقي لشدَّةِ اشتغالِهِ بما هو فيه من العلمِ والعملِ، بل كان ربَّما يُؤتىٰ بالطعامِ وربَّما يُترَكُ عنده فيبقىٰ زمانًا حتىٰ يلتفت إليه، وإذا أكَلَ يأكُلُ شيئًا يسيرًا، وما ذكر من ملاذِّ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوضُ في شيءٍ من حديثها، ولا يسألُ عن شيءٍ من معيشتها، بل جُلُّ همِّه وحديثِهِ في طَلَبِ الآخرةِ وما يقرِّبُ إلىٰ الله تعالىٰ.

وكان مع عُلُوِّ كعبِهِ ورِفعةِ مقامِهِ جَمَّ التواضعِ، ما سُمع بأحدٍ من أهلِ عصرِهِ مثلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، فكان يتواضعُ للكبيرِ والصغيرِ، والجليلِ والحقيرِ، والفقيرِ، ويدنيه ويكرمه ويباسطه بحديثٍ زيادةً عن الغني، حتىٰ إنَّه ربما خدمه بنفسِهِ وأعانه بحملِ حاجتِهِ جبرًا لقلبِهِ، وكان لا يسأم ممَّن يستعتبُهُ أو يسألُهُ، بل يُقبل عليه ببشاشةِ وجهٍ ولين عريكةٍ، ويقف معه حتىٰ يكون هو الذي يفارقه، ولا يجبهه ولا يتفوَّه بكلامٍ يوحشه، بل يُجيبه ويُفهمه، ويُعَرِّفُه الخطأ من الصوابِ بلطفٍ وانبساطٍ، وكان يلزم التواضعَ في حضورهِ مع النَّاسِ ومغيبِهِ عنهم في قيامِهِ وقعودِهِ ومشيه ومجلسِهِ وغيره.

وأما شجاعتُهُ وجهادُه أعداءَ الإسلامِ فأمرٌ متجاوِزٌ للوصفِ، وحدَّثوا أنهم رأوا منه في فتحِ عَكَّةَ أمورًا من الشجاعةِ يعجز الواصف عن وصفِها، وقالوا: لقد كان السببَ في تـملُّكِ المسلمين إياها بفعلِهِ ومشورَتِهِ وحُسنِ نظرِهِ.

وكان من شجاعتِه في مواقفِ الحروبِ نوبةُ «شقحب» سنة اثنتين وسبعمئة، ونوبةُ «كسروان» ما لـم يُسمع إلا عن صناديدِ الرجالِ، وشجعان الأبطالِ، فكان تارةً يباشر القتالَ، وتارةً يحرِّضُ عليه قائمًا بسلاحِهِ يوصي النَّاسَ بالثباتِ، ويعدهم بالنصرِّ ويبشِّرهم بالغنيمةِ»[1]. اهـ

ألا إنَّ ثمرةَ العملِ بالعلمِ لعظيمةُ القدرِ، جليلةُ المقدارِ.

ولقد عدَّ علماؤنا العلمَ الممدوحَ في الكتابِ والسنةِ والمعتبرَ شرعًا هو ما أثمرَ عملًا، وأمَّا ما لـم يثمر عملًا فليس بعلمٍ عندهم.

قال الشاطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلمُ الذي هو العلمُ المعتَبرُ شرعًا-أعني الذي مدحَ الله ورسولُهُ ﷺ أهلَه على الإطلاقِ- هو العلمُ الباعثُ على العملِ، الذي لا يُخَلِّي صاحبَه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيِّدُ لصاحبِهِ بمقتضاه، الحاملُ له على قوانينه طوعًا أو كَرهًا.

ومعنى هذه الجملةِ أنَّ أهلَ العلمِ في طلبِهِ وتحصيله على ثلاثِ مراتبَ:

* **المرتبةُ الأولى**: الطالبون له ولَـمَّا يَحصلوا على كمالِهِ بعدُ، وإنما هم في طلبِهِ في رتبةِ التقليدِ، فهؤلاء إذا دخلوا في العملِ به؛ فبمقتضى الْـحَملِ التكليفي، والْـحَـثِّ الترغيبي والترهيبي، وعلى مقدارِ شدَّةِ التصديقِ يخفُّ ثقلُ التكليفِ، فلا يكتفي العلمُ هاهنا بالحملِ دون أمرٍ آخر خارجَ مَقُولِهِ، من زجرٍ أو قِصَاصٍ، أو حَدٍّ، أو تعزيرٍ، أو ما جرى هذا المجرى، ولا احتياج هاهنا إلى إقامةِ برهانٍ على ذلك؛ إذ التجرِبةُ الجاريةُ في

(١) «غاية الأماني» لمحمود شكري الآلوسي (٢/ ١٧١).

الخَلقِ قد أعطت في هذه المرتبةِ برهانًا لا يحتمل متعلَّقُهُ النقيضَ بوجهٍ.

* **والمرتبةُ الثانية**: الواقفون منه علىٰ براهينهِ، ارتفاعًا عن حضيضِ التقليدِ المجرَّدِ، واستبصارًا فيه، حسبما أعطاه شاهدُ النقلِ الذي يصدِّقُه العقلُ تصديقًا يطمئن إليه، ويعتمد عليه، إلا أنَّه بعدُ منسوبٌ إلىٰ العقلِ لا إلىٰ النفسِ، بمعنىٰ أنَّه لـم يَصِر كالوصفِ الثابتِ للإنسانِ، وإنما هو كالأشياءِ المكتسبةِ، والعلومِ المحفوظةِ، التي يتحكم عليها العقلُ، وعليه يعتمد في استجلابها، حتىٰ تصير من جملة مُودَعاتِهِ، فهؤلاء إذا دخلوا في العملِ، خفَّ عليهم خِفَّةً أخرىٰ زائدةً علىٰ مجرَّدِ التصديقِ في المرتبةِ الأولىٰ، بل لا نسبةَ بينهما، إذ هؤلاء يأبىٰ لهم البرهانُ المصدَّقُ أن يُكَذِّبوا، ومن جملةِ التكذيبِ الخفيِّ: العملُ علىٰ مخالفةِ العلمِ الحاصلِ لهم، ولكنهم حين لـم يَصِر لهم كالوصفِ، ربما كانت أوصافُهم الثابتةُ من الهوىٰ والشهوةِ الباعثةِ الغالبةِ أقوىٰ الباعثين، فلابد من الافتقار إلىٰ أمرٍ زائدٍ من خارجٍ، غير أنَّه يتَّسع في حقِّهم، فلا يُقتصر فيه علىٰ مجرد الحدودِ والتعزيراتِ، بل ثَمَّ أمورٌ أُخرُ كمحاسنِ العاداتِ، ومطالبةِ المراتبِ التي بلغوها بما يليق بها، وأشباه ذلك.

وهذه المرتبةُ أيضًا يقوم البرهانُ عليها مِنَ التجرِبةِ، إلا أنَّها أخفىٰ مِـمَّـا قبلها، فيحتاجُ إلىٰ فضلِ نظرٍ موكولٍ إلىٰ ذَوي النباهةِ في العلومِ الشرعيةِ، والأخذِ في الاتِّصافاتِ السلوكيةِ.

* **والمرتبةُ الثالثةُ**: الذين صار لهم العلمُ وصفًا من الأوصافِ الثابتةِ، بمثابةِ الأمورِ البديهيةِ في المعقولاتِ الأُوَلِ، أو تُقاربها، ولا يُنظرُ إلىٰ طريقِ حصولِـهَا، فإنَّ ذلك لا يُحتاج إليه، فهؤلاء لا يُخَلِّيهم العلمُ وأهواءَهم إذا تبيَّن لهم الحقُّ، بل يرجعون إليه

رجوعَهم إلىٰ دواعيهم البشرية، وأوصافهم الْـخَلقيَّةِ، وهذه المرتبةُ هي المترجَمُ لَـهَا.

والدليلُ علىٰ صحَّتِها من الشريعةِ كثيرةٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩]، ثمَّ قالَ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]، فنسب هذه المحاسن إلي أولي العلم مِن أجلِ العِلْمِ لا مِن أجلِ غيرِهِ.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر:٢٣]، والذين يخشون ربَّهم هم العلماءُ، لقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٨٣].

ولَـمَّا كان السَّحَرةُ قد بلغوا في علمِ السِّحرِ مبلغَ الرسوخِ فيه، وهو معنىٰ هذه المرتبةِ، بادروا إلىٰ الانقيادِ والإيمانِ حين عرفوا من علمهم أن ما جاء به موسىٰ عليه السلام حقٌّ، ليس بالسحرِ ولا الشعوذةِ، ولـم يمنعهم من ذلك التخويفُ ولا التعذيبُ الذي يتوعَّدُهُم به فرعونُ.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]. فَحَصَرَ تعقُّلَهَا في العالِـمِينَ، وهو قَصدُ الشارعِ من ضَربِ الأمثالِ.

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد:١٩].

ثم وَصَفَ أهلَ العلمِ بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:٢٠].

إلىٰ آخرِ الأوصافِ وحاصلُها يرجعُ إلـىٰ أنَّ العلماءَ هم العاملون.

والأدلَّةُ أكثرُ من إحصائها هنا، وجميعُها يدلُّ علىٰ أنَّ العلمَ المعتبرَ هو الْـمُلجِئُ إلىٰ العملِ به»[١]، والآثارُ في هذا الشأنِ كثيرةٌ وجليلةٌ، وما أردتُ إلا التمثيلَ والتنبيه، ولـم أُرد استقصاءً ولا جمعًا.

ومَفادُ ما ذكرتُه أنَّ رَبطَ العلمِ بالعملِ أمرٌ حَتمٌ لا محيصَ عنه، ولا مَفرَّ منه، بل إنَّ كثيرًا من الصَّدِّ عن سبيلِ العلمِ إنَّما يأتي من أنَّ كثيرًا من المشتغلين بالعلمِ ظاهرًا أبعدُ ما يكونون عن العملِ، فيُحدِثُ هذا من التلبيسِ ما تقبُحُ نتيجتُه ويَسُوءُ أثرُهُ.

ولو أنَّ العلمَ ارتبطَ بالعملِ لأقبلَ النَّاسُ علىٰ سَبيلِهِ زَرَافاتٍ ووُحْدَانًا، فاللهمَّ عَلِّمنَا مَا ينفعُنَا، وانفعنَا بما علَّمتَنَا، وزِدنَا عِلمًا، إنَّك أنتَ العليمُ الحكيمُ.

والْـحَمدُ للَّـهِ أولًا وآخرًا، والْـحَمدُ للَّـهِ الَّذي بنعمتِهِ تتمُّ الصَّالِـحَاتُ، وصَلَّـىٰ اللَّـه علىٰ نبينا مُـحمَّدٍ وأبويه إبراهيم وإسماعيل، وآلِهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وآخرُ دعْوَانَا أَنِ الْـحَمدُ للَّـه ربِّ العَالَـمِين.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

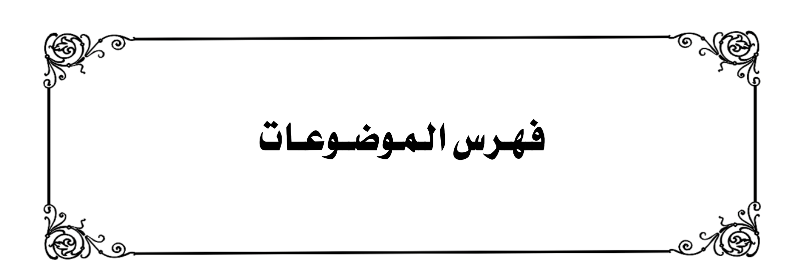
عفا الله عنه وعن والديه

سبك الأحد - في يوم الاثنين

(٢٩/ ٤/ ١٤٢٩هـ - ٥/ ٥/ ٢٠٠٨م)

---

(١) «الموافقات» للشاطبي (١/ ٨٩).



فهرس الموضوعات

* * *